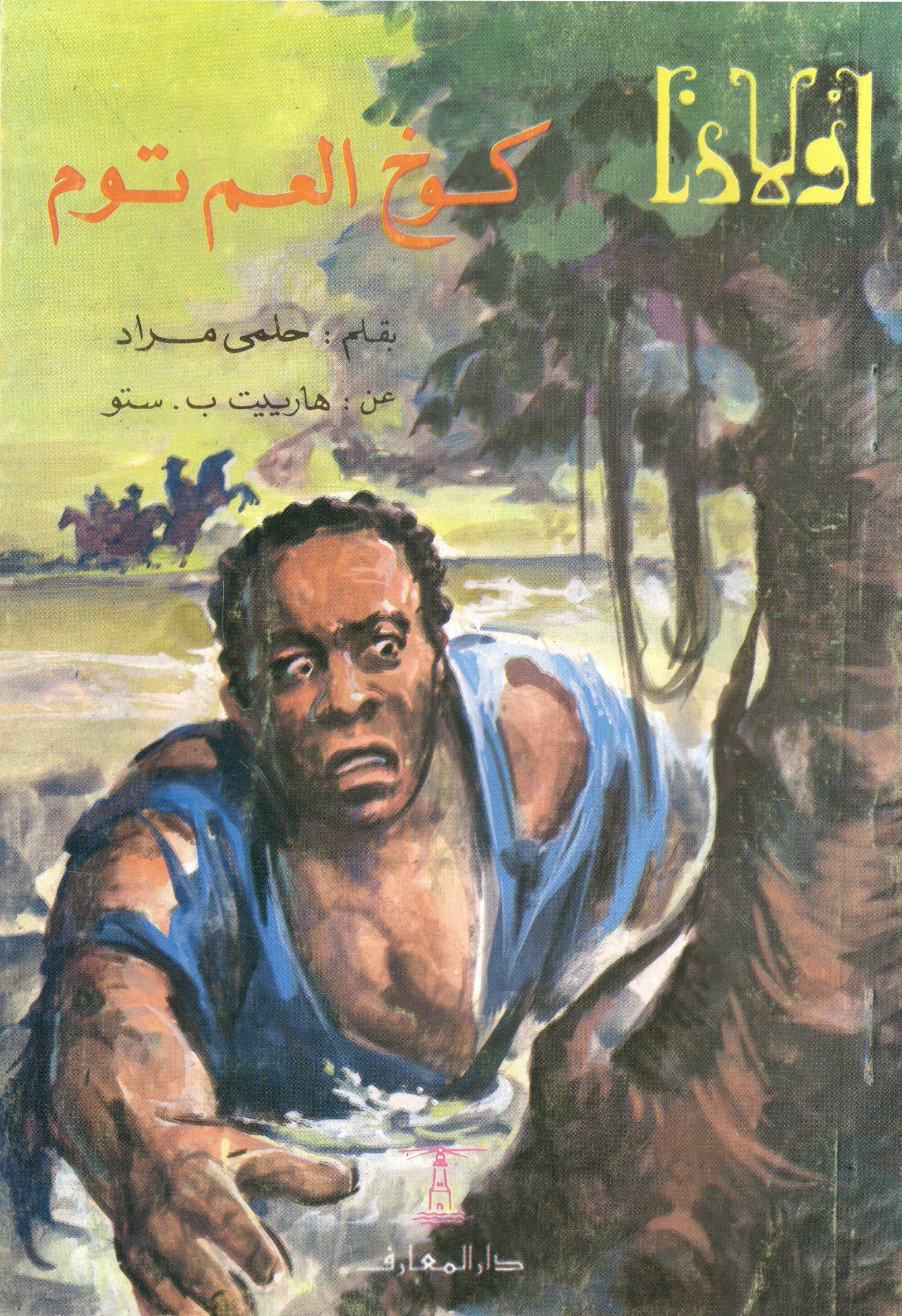
أولادنا

كوخ العم توم

بقلم : حلمى مراد

عن : هارييت ب. ستو



دار المعارف

أولادنا

(٣٢)

كوخ العم توم

بقلم : حلمى مــراد

عن : هاريت ب . ستو

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

لكل كتاب قصة!

منذ ١٣٢ سنة - فى عام ١٨٥٣ - كتبت «هارييت بيتشر ستو» هذه الرواية الجبارة التى كتب لها الخلود!.. وكانت المؤلفة يومئذ امرأة نكرة مجهولة فى وطنها «أمريكا»، وكانت مهامها العائلية - كأم لسبعة أطفال - كفيلة بأن تشغلها عن كل شيء.. لكنها استطاعت رغم ذلك أن تشن لقضية العبيد الزنوج فى أمريكا حملة دعاية لا تكاد تعادلها حملة فى تاريخ الدعايات، سيما لو قدرنا أن الدعايات للقضايا الخطيرة تثيرها عادة هيئة - بل هيئات - فى حين أن هذه المرأة قامت بحملتها ضد نظام الرقيق فى أمريكا، بمفردها، لا يؤازرها سوى قلب نبيل مفعم بالأحاسيس المرهفة والشعور الإنسانى الناضج، ولا سلاح لها سوى قلم ألهبه الإيمان بعدالة القضية التى شنت من أجلها حملتها!..

وبهذا القلم، وذاك القلب، سجلت «هارييت» حدثًا خالدًا فى تاريخ الأدب العالمى، وأشعلت نار حرب غيرت وجه التاريخ فى العالم كله، (فما كان من المنتظر للولايات المتحدة - لو أنها ظلت مقتصرة على ولايات الشمال، كما كانت حالها قبل الحرب الأهلية لتحرير العبيد، التى انتهت بهزيمة الجنوب وضمه إلى الشمال - ما كان ينتظر لهذه الدولة فى تلك الظرو أن تبلغ من القوة والنفوذ ما تتمتع به اليوم).

ويروى عن «إبراهام لينكولن» أنه حين رأى مسز «ستو» للمرة الأولى، هتف فى دهشة: «أهذه السيدة الصغيرة هى التى أشعلت هذه الحرب الكبيرة!؟»...

ذلك لأن «هارييت» كانت ضئيلة الجسم، فى الثانية والأربعين من عمرها، وأمًا لسبعة من الأولاد، حين شرعت تكتب قصة «كوخ العم توم».. وما خطر لها أن سيكون لقصتها كل ما قدر لها من آثار أدبية وإنسانية وسياسية.. ولكن «الله يهدى القلم ويسيره» كما عبرت بنفسها! وبدلا من أن تمر القصة كسواها فى موكب التأليف، إذا بها ترفع كاتبتها إلى مرتبة المجد والخلود، وتجعل منها «أول قصصية تكرس قلمها للدفاع عن المستعبدين المستذلين فى الأرض».. ولعل أغرب دليل على أن هارييت لم تكن مغالية فيما قالته من أن الله هو الذى هدى قلمها، أنها لم تتلق من الثقافة والدراسة ما كان يؤهلها للتأليف!..

كانت ابنة قس واعظ انحدر من أسرة عريقة من أسر «نيو إنجلند»، واستغرق فى دراسته الدين والمجتمع حتى عرف كيف يمزج بين الاثنين - وقلة من رجال الدين من يوفقون إلى دراسة الدنيا تحت أضواء الدين، ومن يوفقون فى تطبيق تعاليم الدين لإصلاح الدنيا - وقد ورث عنه أبناؤه رسالته، بل إن ابنه الأكبر «هنرى وارد بيتشر» غدا مصلحًا كبيرًا تجاوز النطاق القومى المحدود، فإذا به يصبح من زعماء حركة محاربة الرق والدعوة إلى تحرير العبيد فى كل مكان.. وذهب تحمسه إلى درجة دفعته إلى أن يصيح من فوق منبر الوعظ: «لئن تقوم حرب، خير عشرة آلاف مرة من أن يبقى الاستعباد»!..

نبوغ متأخـر

وورثت «هارييت» هى الأخرى نصيبًا من روح أبيها ورسالته وتعاليمه.. وإن كانت تفاعلات هذه الروح والرسالة والتعاليم ظلت تحتدم فى صمت فى أعماقها، فلم تتكشف على أشدها فى البداية، وإنما قضت هارييت طفولة هادئة وشبابًا مطمئنًا.. واشتغلت بالتدريس عشر سنوات، حتى إذا بلغت الخامسة والعشرين، زوجت - فى سنة ١٨٣٦ - إلى عالم بدين من تلامذة أبيها يدعى «كالفين ستو»..

وحتى ذلك الوقت، لم تبد عليها معالم مواهب فذة، وإن بدا ميلها إلى التأليف والأدب، فوضعت كتابًا فى الجغرافيا للأطفال، وكتبت عددًا من القصص القصيرة التى لم تبشر بنبوغ..

وقضت هارييت بعد زواجها خمس عشرة سنة تفرغت خلالها لواجباتها المنزلية والعائلية، وأنجبت سبعة أطفال.. حتى إذا بلغت الأربعين عاودت الكتابة لتكسب ما يساعد على تربية الأولاد.. وكانت عودتها تلك تمهيدًا لظهور هذا الحدث الأدبى الضخم، الذى أدرجه «تولستوى» فى عداد المؤلفات التى اعتبرها أعظم إنتاج تمخض عنه الذهن البشرى!..

وقد بدأ تفكير مسز ستو فى كتابة رواية «كوخ العم توم» قبل أن تشرع فى كتابتها فعلا بعشرين سنة! فقد قامت يومئذ برحلة قصيرة إلى ولاية (كنتكى) شهدت فيها مآسى العبيد فى الولايات الجنوبية.. فراحت

تجمع ما تصل إلى خبره من قصص فرار العبيد من طغيان السادة البيض، وأحاطت كل ذلك بإطار من تعاليم «الأب هنسون»، وكان واعظًا زنجيا أنشأ مستعمرة للعبيد الهاربين إلى كندا..

العم توم الحقيقى!

ومن الطريف أن الأب «جوزياه هنسون» كان «النموذج» الذى صاغت هارييت على غراره شخصية «العم توم» - كما اعترفت فى كتابها «شرح كوخ العم توم» الذى ردت فيه على حملات النقاد الذين استثارتهم النعرة القومية فأبوا أن يؤمنوا بأن سطح الأرض حمل أمثالا للعم توم!..

وهكذا كان «هنسون» الشخصية المادية لتوم.. ومع أنه مات منذ حوالى مائة وخمس سنوات - متجاوزًا التسعين - إلا أن ظله «توم» خلده فى أذهان كل عنصر ولون وجنس على مر الأجيال!..

وقد ولد «هنسون» فى إحدى مزارع (ماريلاند) فى ظلال الاستعباد، وفى كنف المذلة، إذ كان والداه من الرقيق، فكان بالتبعية ملكًا لمالكهما، ليس لأبويه فيه حتى حق اختيار اسمه، إذ كان مولاهما هو الذى سماه!..

وكما حدث للعم توم فى القصة، حظى «جوزياه هنسون» بثقة سادته، وحب زملائه.. ولكن هذا لم يحل بينه وبين أن ينال حظه من قسوة السادة البيض وصلفهم، فكان يضرب فى وحشية، ويسام أشد ألوان الذلة والخسف، غير أن ذلك لم يفعم روحه بالسخط على السماء والقدر وبالحقد على الأرض والبشر، بل كان له من إيمانه خير وقاء..

وكانت قصة حياة «جوزياه» من أروع القصص، وقد سجلها فى كتاب بقلمه أسماه «الحقيقة أغرب من الخيال».. فقد نشأ - ككل عبد فى أواخر القرن الثامن عشر - وليس له من هم سوى أن يستجلب رضى مولاه «إيزاك رايلى»، الذى جعله مراقبًا لمزرعته وهو بعد فى الثامنة عشرة.. ومع ما أبداه «جوزياه» من تفان، وما أداه من خدمات، إلا أنه ظل فى نظر «رايلى» مجرد عبد رقيق، ملك يديه، يفعل به ما يشاء دون أن يحاسبه أحد!.. لذلك لم يتورع عن أن يشج رأسه بالعصا حين فاجأه يومًا وهو ممسك بكتاب يتعلم منه أصول الكتابة والقراءة، إذ بدا ميل العبد للتعلم «جريمة» فى نظر السيد الأبيض، وضاعف الجرم «بشاعة» أن العبد أباح لنفسه أن يقتطف بعض التفاح من بستان السيد ليبتاع بثمنه الكتاب!..

وكان «رايلى» مقامرًا سكيرًا، فكان على «جوزياه» أن يرافقه يوميا إلى الحانة ليدفع عنه ما تجره عليه شراسته من أذى.. وفى ذات يوم تربص له بعض العبيد - بسبب السيد - فظلوا يضربونه حتى كسروا عظام إحدى كتفيه، فخلفوا له عجزًا فى ذراعه اليسرى مدى الحياة..

الفـرار!

ومع كل ما كان يناله على يدى سيده الأبيض، إلا أنه ظل وفيا له.. وقد حدث أن غرق السيد فى الديون، فلما همت مزرعته أن تباع، رأى أن يهرب عبيده إلى مزرعة أخيه فى «كنتكى» فعهد «بالقطيع» إلى «جوزياه».. وكان فى وسعه أن ينتهز الفرصة ليتحرر ويحررهم معه، ولكن

ولاءه لمولاه وتقديره للأمانة، جعلاه يرفض ما اقترحه عليه بعضهم من اجتياز نهر (أوهيو) والسعى إلى كندا!..

وفى مزرعة الشقيق «آموس رايلى»، قدر لجوزياه أن يتعرف إلى الدين المسيحى، وسرعان ما راح يعرف العبيد به، فانتهى الأمر إلى أن اعترفت به الكنيسة الأسقفية النظامية واعظًا فى سنة ١٨٢٨ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره..

وازدادت ديون مولاه، فأوعز إلى أخيه بأن يبيع جميع العبيد عدا جوزياه وأهله.. ورأى جوزياه كيف كان الأب ينتزع من أولاده، والزوجة من زوجها، دون مراعاة للروابط العائلية، فحز فى نفسه الندم على أنه لم يطلقهم ويحررهم يوم كان فى يده أن يفعل!.. وعلى ضوء شعلة الندم تبين رسالته الجديدة فى الحياة، ورأى المصير الذى قد يساق وأهله إليه يومًا، ومن ثم رأى أن يشترى حريته وحريتهم بالمال.. فسعى لدى «آموس» شقيق مولاه حتى أذن له، فانطلق يطوف بمراكز العبيد يعظهم ويبشر بالدين، ويتلقى جزاء ذلك هبات كانوا يمنحونها له عن طيب خاطر، حتى جمع مائتين وخمسة وسبعين دولارًا..

ولكن السيد حنق على عبده أن أحس بالكرامة والرغبة فى التحرر، فأبى أن يبيعه حريته بأقل من ثلاثمائة وخمسين دولارًا تدفع نقدًا، ثم يتبعها بعد حين بمائة أخرى!.. وجد «جوزياه» وعمل دائبًا حتى حصل على المبلغ.. ولكن السيد زعم أنه إنما اتفق معه على خمسمائة وخمسين دولارًا، فعليه أن يواصل العمل لكسب الفرق.. وأدرك «جوزياه» أن السيد

الأبيض إنما يغرر به، وقد استحل ماله.. غير أن القانون ما كان ليصدق العبد ويكذب مولاه!

وفطن «جوزياه» يومًا – إذ رحل فى رفقه ابن «آموس» – إلى أنه إنما كان يستدرج ليباع فى سوق النخاسة فى «نيو أورليانز»! فوسوس إليه الشيطان أن يقتل الفتى، لولا أن ذكر ربه فى اللحظة الأخيرة، فندم واستغفر..

وبلغا «نيو أورليانز».. وقبيل السوق، أصيب الفتى بحمى خبيثة، زادت من وطأتها وحشة الغربة، فاستأنس بالعبد وتشبث به.. ونسى «جوزياه» أن الغدر من شيم السادة البيض، فعكف على تمريض الفتى ولم يحاول الفرار..

ولكن صنيعه لم يشفع له عند مولاه، فعاد يدبر الخطة لبيعه. وإذ ذاك انهار تشبث العبد بالولاء، وقرر أن يهرب بزوجته وأطفاله الأربعة.. وفى مساء أحد أيام سبتمبر سنة ١٨٣٠ حمل ولديه الصغيرين فى كيس على ظهره، واصطحب زوجته وولديه الآخرين وانطلقوا.. وكانوا يلوذون بالغابات نهارًا، ويسيرون ليلا، حتى عبروا نهر «أوهايو»، وقطعوا ولاية «انديانا» ثم اجتازوا بحيرة «إيرى» فى سفينة أشفق عليهم ربانها فلم يتقاض أجرًا، بل منحهم ما يساعدهم على السفر إلى كندا..

يتزعم العبيد الهاربين!

وبدأ «جوزياه» حياته الجديدة وهو لا يملك سوى إيمان عتيد.. فسرعان ما أثبت أنه كان أهلا للحرية، وعمل دائبًا حتى أنشأ مستعمرة

للعبيد الهاربين.. وكان يطوف بأرجاء كندا ونيو إنجلند يدعو للدين، ويستحث الضمائر الحية أن تهب لمكافحة النخاسة والاستعباد!..

وعندما أقيم مهرجان الإمبراطورية البريطانية فى سنة ١٨٥١ - احتفالا بيوبيل الملكة فيكتوريا - اصطحب جوزياه نخبة من أبناء مستعمرته إلى لندن ليدلل على أن الزنوج آدميون كالبيض، وليوقظ بأحاديثه الضمير العالمى.. وكان فى تلك الأثناء قد كتب قصة جهاده من أجل الحرية ورصد أرباحها لمكافحة النخاسة والرق، فكانت الكلمات الصماء من أقوى الأسلحة التى استعان بها على تحقيق أهدافه..

وعندما عاد من إنجلترا، وجد ذخيرة جديدة لكفاحه متمثلة فى كتاب «كوخ العم توم»، الذى ظهر فى تلك الأثناء واستقبل من الجماهير بأروع مظاهر الحماسة والإعجاب!..

ومرت السنون، وحرمت النخاسة والرق.. وإذ ذاك عاد «جوزياه» يزور إنجلترا، فاستقبل استقبال الأبطال المظفرين، وفتحت له الهيئات والمعاهد أبوابها ليحاضر الناس، الذين كانوا يتزاحمون بالمناكب حوله.. ودعته الملكة فيكتوريا إلى حفلة جمعت فيها كواكب المجتمع والبلاط من السيدات الرفيعات الشأن..

وعاد إلى كندا مثقلا بالهدايا وألقاب الشرف، فحن إلى ماريلاند، وطنه الأصلى، ومهد عبوديته.. وهناك ألفى كل شىء قد تغير: فالزنوج قد رحلوا إلى جمهوريتهم فى أفريقيا الغربية «ليبيريا».. والحشائش صارت تنمو فى حقول القمح لأن العبيد ذهبوا وحل محلهم عمال يتقاضون أجورًا ولا يجلدون بالسياط!..

لم يكن باقيًا من العهد القديم سوى أرملة «إيزاك رايلى»، وقد ذهبت السنون ببصرها فلم تتعرف عليه إلا بتحسس الندوب التى شقها النخاس فى ذراعه فى صغره لتكون علامة يعرف بها.. وهتفت السيدة:

- لعمر الحق يا جوزياه.. لقد غدوت سيدًا..

فأجابها فى عزة ويقين:

- بل كنت دوامًا.. سيدًا!..

حلم فى اليقظة.. يوحى بالقصة!

ذلكم هو النموذج الذى صيغت على غراره شخصية «العم توم».. ولنعد الآن إلى قصة مسز «ستو».. فمنذ أن التقت بالأب «جوزياه هنسون» فى إحدى جولاته التبشيرية وهى لم يهدأ لها بال، وظلت الأحداث تتفاعل فى أعماقها.. وكانت حركة تحرير العبيد - التى بدأت فى الولايات الشمالية سنة ١٨٣٠ - تثير مخاوف السادة البيض فى ولايات الجنوب، وكلما انتشرت الدعوة انقلبت مخاوفهم إلى هوس!.. حتى صدر - فى سنة ١٨٥٠ - القانون الذى يحرم على الأهالى فى ولايات الشمال مساعدة العبيد الهاربين!.. فإذا بالحركة تذكو، وإذ مسز «ستو» تندمج فيها بكل روحها.. إذ كتبت لها يومئذ زوجة شقيقها تقول: «لو إننى كنت أملك قلمًا كقلمك، لكشفت للشعب عن نقمة الاستعباد والرق».. فكانت هذه العبارة هى الشرارة التى أضرمت إلهام «هارييت».

وفى أحد أيام فبراير سنة ١٨٥١، كانت تجلس فى كنيسة البلدة شاردة، ساهمة الذهن.. وفجأة، رسم الخيال لها منظرًا لعله كان من فيض الأبخرة المتصاعدة من تفاعل العوامل المكبوتة فى نفسها: منظر أحد سادة المزارع البيض يأمر بجلد عبد اشتعل رأسه شيبًا، واكتست أساريره بنفحات التقوى.. وتلقى العبد لهيب السياط بصبر لم يزد الطاغية الأبيض إلا

طغياناً، فظلت السياط تهوى على العبد المسكين، حتى مات وعلى شفتيه دعاء لله أن يغفر لقاتله!

وقفزت «هارييت» فهرولت إلى دارها، وأرسلت قلمها يصور المشاعر التى تفجرت فى أعماقها.. وكانت القصة فى بدايتها قصيرة، ولكنها ما لبثت أن رأت أن الموضوع أهم من ذلك، فمضت تنسج منها رواية طويلة.. وبعد أن كانت تتوقع أن تنشرها فى مجلة «العهد القومى» - ذى ناشنال إيرا - التى كانت توافيها بإنتاجها، على ثلاث حلقات، (فى مقابل ثلاثمائة دولار)، إذا بها تمتد إلى أربعين حلقة، قضت سبعة شهور فى إعدادها، ثم تبينت أنها لم تتجاوز أكثر من ثلث القصة.. وكما قالت، لم تكن هى التى تكتب، بل إن العناية الإلهية كانت تسوق قلمها وتلهمه!..

أرقام خيالية!

وطبعت قصة «كوخ العم توم» ككتاب فى مارس سنة ١٨٥٢، فشغلت مجلدين، وإن هى إلا ثلاثة أسابيع حتى بلغ ما بيع منها ٢٠,٠٠٠ نسخة.. وتوالى طبعها ونفاد نسخها، فلم يحن شهر يونيو حتى كان يباع منها ١٠,٠٠٠ نسخة فى الأسبوع.

وهبت صحف الجنوب تستهجن القصة وتكذب حوادثها وتحمل على كاتبتها. وثار سادة الجنوب فحرموا بيع القصة فى المكتبات، وقرروا عقاب من يبتاعها.. ومع ذلك، فلم يحن شهر أكتوبر من ذلك العام حتى كان ما بيع منها ١٠٠,٠٠٠ نسخة، وعدد اللغات التى ترجمت إليها اثنتى عشرة لغة، وعدد الطبعات التى استباح الناشرون فى الخارج، لاسيما فى إنجلترا،

لأنفسهم إصدارها دون إذن المؤلفة: عشرين طبعة!.. وكانت تنشر مسلسلة فى ست صحف باريسية فى آن واحد!..

ولقد وصفت أديبة فرنسا الخالدة «جورج صاند» مؤلفتها بالعبقرية والنبوغ، وقرأ «لورد بالمرستون» قصة «كوخ العم توم» ثلاث مرات، ولم يكن قد قرأ قصة واحدة طيلة ثلاثين عامًا!.. ووقعت ٥٠٠,٠٠٠ امرأة فى إنجلترا نداء إلى نساء أمريكا يلتمسن منهن فيه أن يحاربن الرق!

وإذا اكتمل العام الأول لصدور القصة، كان عدد النسخ التى بيعت منها بمختلف اللغات ٢,٥٠٠,٠٠٠!

ولقد ألفت «هاريت» بعد «كوخ العم توم» قصصًا وروايات كثيرة أخرى، كما ألفت قبلها.. ولكنها لم تصب فى أى منها ما أصابت فى هذه القصة من مجد وسمو.. فهى - كما قالت - لم تكن تكتبها، وإنما كانت مسوقة بإيحاء إلهى يحرك القلم فى يدها دون وعى منها!

والآن تعال معى نقرأ فى الصفحات التالية تلخيصًا للقصة الخالدة: «كوخ العم توم».

١

لم يكن مستر شيلبى بالرجل الذى يسهل عليه أن يبيع أحدًا من عبيده، وبخاصة «توم» المسن الذى طالما حمله طفلا صغيرًا، ورعاه غلامًا وفتى، ورافقه رجلا ناضجًا، فكان خير عون له.. توم التقى الورع الذى تفتح قلبه للإيمان، فأخلص للدين حق الإخلاص.. توم الصادق الأمين الذى أوفده سيده شيلبى مرة إلى «سنسناتى» ليحصل لحسابه مبلغ خمسمائة دولار من أحد عملائه، فحاول بعضهم أن يغريه على الفرار إلى كندا ليتحرر من الاستعباد، ولكنه قال لهم: «لقد ائتمننى سيدى، فلا أستطيع الفرار!».

ولكن الديون كانت قد جعلت مستر «شيلبى» تحت رحمة النخاس – تاجر العبيد – القاسى القلب-«هالى»، فلم يجد مفرًا من أن يبيعه «توم» مقابل إعفائه من ديونه!.. ولكن الجشع راود «هالى»، فأصر على أن يدخل فى الصفقة طفلا فى الخامسة من عمره يدعى «هارى».. وكان التفريط فى ذلك الطفل بالذات من أشق الأمور على نفس مستر «شيلبى»، إذ كانت أم الطفل «اليزا»، أحب الجوارى إلى زوجته.. غير أنه لم يكن يملك سوى الخضوع لدائنه، فى ذلك الصباح البارد المشؤوم من شهر فبراير!..

وأحست «إليزا» – السمراء الرقيقة، الجميلة، ابنة الخامسة

والعشرين - بما يراد بوحيدها، فاستبد بها الخوف، لولا أن طمأنتها مولاتها التى رعتها منذ الصغر وقربتها إليها..

وكانت ولاية (كنتكى) مسرحًا مثاليا لنظام الاتجار فى الرقيق.. كانت ولاية زراعية، فكان السادة يحرصون فيها على عبيدهم، ولا ينساقون وراء إغراء الأثمان المرتفعة التى كان يعرضها تجار العبيد الذين كانوا يجمعون الرقيق للولايات الجنوبية حيث تمس الحاجة للأيدى العاملة.. وكان السادة فى (كنتكى) ميسورى الحال، فلم تكن بهم حاجة إلى التخلص من عبيدهم، بل كانوا لطول العشرة يألفونهم ويعاملونهم فى رفق وإنسانية.. لذلك كان العبيد سعداء، يخلصون لهم ويؤثرونهم بأسمى ألوان الولاء.. على أن سعادتهم هذه كانت دوامًا مهددة.. مهددة بالقانون الذى يعتبرهم متاعًا.. ومهددة بما يحيق بسادتهم من فشل، أو سوء حظ، أو موت، مما قد يؤدى إلى انتقالهم هم من حماية طيبة كريمة، إلى تعاسة قاسية فى خدمة أسياد جدد غلاظ القلوب!..

* * *

وكانت «اليزا» تدين لمولاتها «مسز شيلبى» - النبيلة الأصل والخلق - بنشأتها وتربيتها.. وبنجاتها من عواقب جمالها الفاتن - فقد كان الجمال نقمة على الجوارى المستعبدات، إذ كان يغرى بهن السادة البيض! - وبفضل رعاية مسز شيلبى، انتهت «اليزا» إلى الزواج من عبد بمزرعة مجاورة، يدعى «جورج هاريس». وكان موهوبًا، من المخلطين مثلها (أى ابنًا لأب من السادة البيض وأم من الجوارى السود) وقد أجره مولاه للعمل فى مصنع للأكياس، فهداه ذكاؤه إلى اختراع آلة لتنظيف القنب، مما

أغضب مولاه عليه - وكان طاغية شريرًا، خشى أن يرتفع العبد فوق مستوى الرقيق، فرده إلى العمل فى الزراعة، وسلط عليه أدنى أساليب الإذلال! - ولم يكن صبر الشاب إلا ليزيد مولاه رغبة فى التنكيل به، والقضاء على روحه الطموح، وذكائه المتوقد.. حتى امتلأ قلب «العبد» حقدًا عليه وضغينة!

وجاء «جورج» فى ذلك المساء يزور زوجته فى غيبة مولاتها.. وجزعت الشابة لما لمسته فيه من يأس وشقاء، فراحت ترجوه أن يصبر على ظلم «مولاه»، ولكنه صاح فيها:

- مولاى؟!.. ومن الذى جعله مولى على؟.. أى حق له فى أن يمتلكنى؟.. إننى إنسان مثله.. بل أنا خير منه، فأنا أعرف أكثر مما يعرف، وأنا أقدر منه على إدارة الأعمال، وأحسن منه قراءة وخطا.. وقد تعلمت كل ذلك بنفسى دون أن يكون له أى فضل. لقد حاولت أن أصبر على تلذذه بإذلالى، ولكن للحم والدم طاقة يصعب بعدها الاحتمال!

ووصف لها كيف قيده الطاغية إلى شجرة فى اليوم السابق، ودعا ابنه كى يلهبه بالسوط حتى كلت يداه، ثم استطرد قائلا: «من الذى جعله سيدًا لى؟.. لقد ربح منى ما يعادل ما أنفق مائة مرة.. لا.. لن أحتمل بعد اليوم.. لا تذكرينى بالله، فإن قلبى ملىء بالمرارة، ولم يعد بوسعى أن أثق بالله، وإلا فكيف يرضى عن هذه الأوضاع؟.. كم أود أن أكون صالحًا، لولا أن فؤادى يحترق، فلا سبيل إلى إصلاحه.. إنك لم تعلمى بعد ببقية التنكيل الذى أصابنى منه.. لقد دأب أخيرًا على تهديدى بمنعى من المجىء إليك، وعلى تكرار إنه سيزوجنى من إحدى جوارى مزرعته.. حتى إذا كان

الأمس، أمرنى بأن أتزوج من فتاة عينها لى، وإلا باعنى!».

قالت (اليزا) فى بساطة: «ولكنك تزوجت منى على يدى قس، كأى زوجين من البيض؟!».

- أما علمت أن ليس للعبيد أن يتزوجوا؟.. هكذا يقضى قانون البلاد!..

وصارحها جورج بعزمه على الفرار إلى كندا، حيث يمكنه أن يعمل ويدخر ما يمكنه من أن يشتريها وطفلها ويحررهما!.. وبين البكاء واللوعة، افترقا، وأملهما فى اللقاء أضعف من نسيج العنكبوت!..

* * *

كان كوخ «العم توم» مشيدًا من الخشب بجوار منزل مولاه، تحتضنه النباتات المتسلقة المزهرة، وتمتد أمامه حديقة صغيرة أنيقة، تنمو فيها الخضر والفواكه..

وإلى هذا الكوخ دخلت العمة «كلو» بعد أن انتهى العشاء فى دار السيد، لتعد عشاء رجلها المسن، وأطفالها الثلاثة.. وكانت النظافة والهدوء والدفء تسيطر فى داخل الكوخ، وقد جلس «العم توم» - بطل قصتنا - إلى مائدة أمام المدفأة، مع السيد جورج ابن مولاه، الذى كان يحبه ويشغف بفطائر زوجته «العمة كلو»، حتى ليضحى بالعشاء مع والديه ليأكل فطيرة تعدها له فى الكوخ، وليعيش ساعات فى جو الكوخ الهانىء..

وكان توم طويل القامة، عريض الصدر، تبدو عليه القوة رغم سنه، وتدل ملامحه على أنه من أصل إفريقى عريق، وتسيطر عليه الرزانة،

والرفق، والتقوى.. وكان حين أقبلت «كلو» منهمكًا فى محاولة الكتابة على لوح من الإردواز، تحت إرشاد السيد جورج..

وما أن رفعت مائدة العشاء، حتى انهمكت العمة «كلو» فى إعداد الكوخ للاجتماع الدينى الأسبوعى، إذ اعتاد عبيد الضيعة والضياع المجاورة أن يحضروا للاستماع إلى الوعظ وإلى بعض فصول من التوراة، ثم يشتركون فى الترانيم..

وبينما كان القوم فى هذا الاجتماع الدينى، كان هناك اجتماع آخر فى قاعة المائدة بدار المستر شيلبى.. حيث وقع السيد عقد بيع عبده المفضل توم والصبى هارى وهو يقول للتاجر النخاس «أرجو أن تذكر يا هالى إنك وعدت بشرفك أن لا تبيع توم ما لم تطمئن إلى الأيدى التى ستسلمه إليها.. فما دفعنى إلى التخلى عنه سوى الظروف التى تعلمها حق العلم!».

* * *

وفى ذلك المساء، ما إن خلت مسز شيلبى إلى زوجها حتى سألته: «من ذلك الوضيع المنبت الذى استضفته اليوم يا آرثر؟».

ولم يجد بدا من أن يصارحها بأنه باع «توم» و«هارى» للنخاس، تحت وطأة الديون، فهتفت:

– ماذا؟.. عزيزنا توم، التقى الوفى، الذى خدمك مخلصًا مذ كنت صبيا؟.. ألم تعده على العكس بأن تمنحه حريته؟.. لقد حاولت جاهدة أن أقوم بواجبى نحو هؤلاء التعساء السذج، فكيف أرفع رأسى بينهم بعد اليوم؟.. لقد علمتهم أن يرعوا روابط الأسرة، والزوجية، والبنوة، فكيف

أحتمل هذا الاعتراف الصريح بأننا لا نراعى رابطة، ولا واجبًا، من أجل المال ؟.. وكيف تصدقنى «اليزا» وهى ترانا ننقلب عليها ونبيع ابنها ؟.. هذه هى النقمة التى صبها الله علي الاسترقاق.. نقمة على السيد، ونقمة على العبد.. إنها لخطيئة أن نقتنى العبيد فى ظل قانون كقانوننا.. وإن قساوستنا لأعجز من أن يقاوموا الشر، فهم ينقلبون إلى تبريره والدفاع عنه!

وكانت «اليزا» فى الخارج تسترق السمع وقد شحب وجهها، وأخذت فرائصها ترتعد.. ثم تسللت إلى غرفتها، فانحنت على صغيرها الذى كان ينام وادعًا.. ولم تذرف دمعة واحدة، ففى مثل تلك المحن لا تبكى العيون دمعًا، وإنما تنزف القلوب دمًا..

وتناولت «اليزا» قلمًا وورقة فكتبت لسيدتها بضع كلمات تودعها، ثم جمعت ثياب صغيرها وبعض لعبه فحملتها وحملته، وانطلقت من البيت فى هدوء، حتى بلغت كوخ العم توم، فطرقت نافذته برفق.. وجزعت العمة كلو إذ رأتها.. وبهت توم إذ سمعها تروى ما كان من أمر بيعه وطفلها، وأعذار السيد، واعتزامها الفرار!.. وحثت كلو زوجها أن يفر هو الآخر، ولكنه قال: «لا.. دعى اليزا تهرب، فهذا حقها.. أما أنا، فليبيعونى إذا لم يكن هناك بد من بيعى.. لقد اعتاد السيد أن يجدنى دائمًا طوع أمره، وسأظل كذلك.. فلم يحدث يومًا أننى خنت ثقته، ولا استغللت ما منحنى من امتياز، ولن أفعل اليوم.. فإنه خير لى أن أباع، من أن تباع المزرعة وما عليها!».

* * *

لم تكد مسز شيلبى تعلم بفرار «اليزا» فى الصباح التالى، حتى هتفت فى

ارتياح: «الحمد لله !».. فصاح زوجها: «كيف تقولين هذا أيتها الزوجة؟.. إن فرارها يضعنى فى موقف حرج، فقد يظن «هالى» إننى ساعدتها على الفرار إنقاذًا لابنها !».

ومع أن ثورة «هالى» حين علم بالحادث قد أغضبت شيلبى، إلا أنه أوفد معه عبدين، وأعاره جوادًا، لينطلق فى مطاردة الهاربة.. وأحس العبدان «سام» و«آندى» أن مولاتهما تتمنى أن تنجو «اليزا» من مطارديها، فراحا يعطلان المطاردة بحيل وأساليب ظاهرة السذاجة والبراءة، لا يجد فيها أحد مأخذًا عليهما..

* * *

لم يكن على ظهر الأرض أشقى من «اليزا» حين بارحت كوخ العم توم.. كانت وحيدة، لا حامى لها ولا نصير.. تحدق الأخطار بزوجها، وبطفلها، فتدفع ساقيها إلى الإسراع.. وكان حبها لمولاتها يثقل قدميها أحيانًا، فتهب عاطفة الأمومة تقاومه.. وكان الجليد يتهشم تحت قدميها فترتعد.. وظلال أوراق الشجر المتساقطة تفزعها، وتوحى إليها بأن القوم منطلقون فى أثرها، فتهتف من أعماق فؤادها: «ساعدنى يا رب !.. أنقذنى يا رب !».

وكان همها الأول أن تبلغ نهر «أوهايو».. وحوالى غروب شمس ذاك اليوم، انتهى بها السير إلى قرية على ضفته، فسارت إلى حانة تشرف على الشاطئ وهى مضناة، منهوكة القوى، مشققة القدمين..

وأفزعها أن تبينت أن الجليد الذى كان يكسو سطح النهر قد بدأ يذوب

مع بشائر الربيع.. وأن القوارب لم تعد تجرؤ على اجتياز النهر قبل أن يذوب الجليد كله..

وهمت أن تستريح حتى تتدبر وسيلة.. ولكنها سرعان ما انتبهت إلى ثلاثة يدخلون الحانة، فإذا بها تتعرف فيهم على «هالى» و«سام» و«آندى»!.. وجن جنونها فاختطفت صغيرها من مرقده وأسرعت متسللة من الباب الخلفى للكوخ.. وأوشك المطاردون أن يلحقوا بها عند حافة النهر.. وفى غمرة الذعر والقنوط، قفزت إلى إحدى كتل الجليد الطافية.. وأخذت تنتقل من كتلة إلى أخرى، لا تكاد ترى شيئًا، حتى أحست بيد تنتشلها عند الضفة الأخرى من النهر، وكأنما أرسل الله صاحبها خصيصًا لنجدتها، فسرعان ما تبينت فيه صاحب مزرعة صغيرة قريبة من ضيعة شيلبى..

وأنصت الرجل إلى قصتها فى اكتئاب، حتى إذا انتهت، أشار لها إلى بيت أبيض كبير فى نهاية القرية وقال: «ليس فى قدرتى أن أساعدك كثيرًا، ولكن فى هذا البيت قومًا طيبين لن يبخلوا بمساعدة».

وسارت إلى البيت خائفة، مترددة!

* * *

أما «هالى» فارتد غاضبًا إلى الحانة التى على الضفة الأخرى للنهر.. وإذا به يلتقى فيها بزميلين من تجار العبيد، أحدهما ضخم، ظاهر القسوة ويدعى «لوكر»، والآخر ضئيل خبيث اسمه «ماركس»..

وروى هالى للزميلين مغامرة «اليزا»، فقال «لوكر»:

«إننى حين أشترى جارية ذات ولد، أبدأ فأهددها بقبضة يدى قائلا: «إذا احتجبت أو نطقت بكلمة هشمت وجهك.. إن ابنك ملك لى وليس لك، وسأبيعه فى أول فرصة، فحذار أن تنطقى بكلمة واحدة، وإلا جعلتك تتمنين لو أنك لم تولدى!»».

وأفضى بهما الكلام إلى مساومته.. فقد اقترح لوكر وماركس أن يتوليا مطاردة اليزا، فإن أمسكا بها، كانت لهما، وردا الطفل إلى «هالى».. وراود «هالى» الطمع، فحاول أن يحصل منهما على نصيب من الربح الذى يجنيانه من وراء الجارية، ولكنه انتهى إلى أن دفع لهما صاغرًا خمسين دولارًا لكى يسترد الطفل..

وكان البيت الذى لجأت إليه «اليزا» بيت عضو فى مجلس الشيوخ، عاد إلى أسرته بعد جلسة صاخبة ناصر فيها قانونًا يحرم على الناس مساعدة العبيد الهاربين من ولاية (كنتكى)..

وصاحت مسز «بيرد» - زوجته - مستنكرة وهو يحدثها عن القانون: «هل تظن يا جون أن مثل هذا القانون عادل، يتمشى مع تعاليم المسيحية!.. إنه مخجل، خبيث، فظيع!.. لن أتورع عن خرقه فى أول فرصة تسنح لى.. إن الإنجيل يأمرنا بإطعام الجائع، وكسوة العارى، ومساعدة من يعانون ضيقًا..».

وفى غمرة الجدل، أقبل خادم يدعو السيدة إلى المطبخ.. وهناك، رأت «اليزا» منهوكة القوى، ممزقة الثياب، تكاد أطرافها تتجمد من البرد.. وعنيت السيدة الرحيمة بالجارية وابنها.. وتناسى المستر «بيرد» قانونه،

وراح يوصى زوجته بأن تهدى المسكينة وطفلها بعض الثياب!.. حتى إذا أكلت «اليزا» واستراحت، تذكر عضو الشيوخ قانونه، وبدأ القلق يشتد به خوفًا من أن تكتشف الهاربة فى داره!.. ثم خطر له حل: لقد انتقل أحد معارفه - ويدعى «فان ترومب» - من ولاية (كنتكى) إلى ولاية (أوهايو)، فحرر كل عبيد بيته، وأقام فى غابة قريبة.. ومن ثم ففى وسعه إيواء الهاربة وابنها!

وفى ظلمة الليل البهيم، صحب مستر «بيرد» اللاجئة وطفلها فى طريق وعر إلى مقر «فان ترومب» فعهد بها إلى رعايته..

٢

كان صباح ذلك اليوم من فبراير معتما، ورذاذ المطر لا يكف عن التساقط.. وجلس العم توم فى كوخه والإنجيل على ركبتيه، ولكنه لم يكن يقرأ، أو يتكلم.. وما لبث أن سار فى هدوء إلى حيث كان أطفاله نائمين، وتمتم: «إنها آخر مرة!».. ولم تجب العمة «كلو» بل انخرطت فى النحيب، وهى تتساءل عما سيكون عليه حاله حيث يسوقونه، فقال: «إن الرب واحد هنا وهناك.. وقد أسلمت نفسى لله، ولن يصيبنى إلا ما كتب لى».

وأيقظت كلو أبناءها فتناولوا آخر فطور مع أبيهم.. ثم أقبلت مسز شيلبى حزينة آسفة، تودع توم وتعده بأن تسترده - أينما كان - إذا ما توفر لديها المال..

وتبع توم تاجر العبيد حين حضر، فصعد إلى عربته فى استسلام، وإذا «هالى» يحيط ساقيه بالسلاسل، فسرت فى العبيد الذين تجمعوا لوداعه، موجة استياء!.. ولكن «هالى» لم يهتم، ولم يخجل، بل إنه لم يلبث أن أوقف العربة أمام حانوت حداد على بعد أميال من القرية، ليصلح قيدين حديديين كى يناسبا يدى توم!..

وبينما كان الحداد منهمكًا فى العمل وهو مشفق على العبد المسن، إذا بالفتى جورج شيلبى يلحق بالعربة على صهوة جواده، فيقفز محتضنًا توم وهو يبكى ويستنكر ما أتى أبوه، والعبد يخفف عنه.. وما أن عاد هالى

بالقيدين فأحاط بهما معصمى توم حتى انفجر جورج فيه: «ألا تخجل من أن تقضى العمر تشترى الرجال والنساء وتقيدهم بالسلاسل كالمواشى؟.. جدير بك أن تشعر بالحقارة!.. إننى لأخجل اليوم من أننى من أبناء كنتكى».

* * *

فى عصر يوم يهطل فيه رذاذ المطر، هبط مسافر من عربته أمام فندق ريفى فى بلدة صغيرة فى ولاية (كنتكى)..

ولاحظ الغريب - بعد أن استقر - فريقًا من القوم يتجمعون حول إعلان كبير فى وسط قاعة الشراب، فنهض ومضى يقرأ الإعلان.. فإذا به عن عبد هارب وعد مولاه من يأتيه به حيًا أو ميتًا بمكافأة سخية!.. وقرأ الرجل الإعلان بإمعان فإذا بأوصاف العبد تنطبق على «جورج هاريس».. وكان يعرفه، لأنه هو لم يكن سوى صاحب مصنع الأكياس الذى استأجر العبد الذكى يومًا، وأفسح له الفرص ليخترع الآلة التى ملأت صدر مولاه حقدًا عليه..

وفجأة، أقبل على المشرب شخص طويل القامة، أسمر البشرة، تنم ملامحه عن أصل اسبانى عريق، فطلب جناحًا فى الفندق.. وتفرس فيه المستر «ولسون» - صاحب مصنع الأكياس - فخيل إليه أنه يعرفه.. وأجاب السيد الأسبانى الأصل بنظرات مماثلة، ثم تقدم إليه وسأله: «ألست مستر ولسون؟.. أريد أن أحدثك فى بعض الأعمال»..

وصحبه إلى الجناح الذى خصص له، حتى إذا صرف تابعه وخدم

الفندق، تحول فأغلق الباب ودس المفتاح فى جيبه، ثم التفت إليه، فحدق فيه الرجل ثم هتف فجأة: «يا لله.. جورج!».

ذلك أن النزيل الأنيق لم يكن سوى.. جورج هاريس! وقد ساعده ما ورث عن أبيه السيد الأبيض من ملامح، على أن يتنكر فى هيئة السادة.. وقال ولسون: «إن الواجب يدعونى إلى أن أقول لك يا جورج إنك بفرارك من سيدك الشرعى خرجت على القانون والوطن».

فصاح جورج بمرارة: «الوطن؟.. أى وطن لى غير قبرى؟.. لا تعطنى بالإنجيل، فالدين لمن فى ظروفى لا يجدى.. إننى أرفع أمرى إلى الله تعالى وأسأله: هل من الذنب أن أسعى لحريتى؟».

وحاول مستر ولسون أن يجادله، ولكن هذا قال: «أى وطن لى أو لأحد ممن أنجبتهن الجوارى المستعبدات.. وأى قوانين تقيدنا؟.. ألستم تقولون إن الحكومات تستمد سلطاتها من رضى المحكومين؟.. ألا انظر إلى.. ألا ترانى إنسانًا مثلك تمامًا؟.. لقد كان لى أب من أشراف كنتكى وسادتها، ولكنه لم يعن بى إطلاقًا.. وعندما مات، بيعت أمى وأولادها السبعة مع ما بيع من ممتلكاته!..»

وروى له كيف بيعت أخواته الست متفرقات أمام عينى أمه!.. حتى إذا حان دوره - وكان أصغر أبنائها - رِكعت عند قدمى واحد من أتباعه وتوسلت إليه أن يشتريها معه، فركلها بحذائه..

وابتاع مولاه أخته الكبرى. وكانت تقية ورعة، ففرح فى البداية، ثم سمع السياط تهوى على جسدها إذ أبت أن تفرط فى تعاليم الدين.. ورآها

تقيد بالسلاسل مع فريق من العبيد ليرسلوا إلى سوق النخاسة.. ومضى قائلا: «وكبرت ولا أب لى ولا أم ولا أخت.. لا أحد لى فى الحياة، ولا شىء سوى السياط، والزجر، والجوع.. كنت أفرح إذا أصبت عظمة مما يلقى للكلاب.. وكنت أبكى فى بهيم الليل، لا من الجوع، ولا من أثر السياط، وإنما حنينًا إلى أمى وشقيقاتى»..

وروى له قصة زواجه، وكيف أراد مولاه أن يتحكم حتى فى روابط الزواج، لأن القانون يخول له ذلك.. وكانت الدموع تنهمر من عينى الرجل وهو ينصت.. ودفع إليه بحزمة من الأوراق المالية يستعين بها، ولكن الشاب أبى أن يأخذها إلا كدين يرده له حين تتحسن أحواله.

وقال الرجل: «إنك ترفع رأسك وتتكلم وتتحرك كأى سيد!»، فأجاب جورج: «أجل.. لأننى.. حر!».

مر «هالى» فى طريقه إلى الجنوب على «واشنطن» حيث شهد مزايدة لبيع الرقيق.. وكان من بين المعروضين فتى فى الرابعة عشرة احتضنته أمه العجوز، فلما اشتراه «هالى»، توسلت إليه العجوز أن يشتريها هى الأخرى، ولكنه رفض فى جفاء وغلظة، ثم أمر فانتزع الغلام منها عنوة وقيد بالسلاسل مع اثنين آخرين اشتراهما النخاس.. وإن هى إلا أيام حتى كان «هالى» وعبيده - وبينهم توم - على سفينة تشق بهم عباب نهر «أوهيو»...

ورست السفينة يومًا على بلدة صغيرة، فهبط «هالى» إلى البر، وعاد بجارية أنيقة جميلة، تحمل طفلا.. وكانت تظن أنها راحلة إلى حيث تعمل فى البلدة التى يعمل بها زوجها، كما أخبرها مولاها، فلما صارحها النخاس

بالحقيقة بعد إقلاع السفينة، انخرطت فى البكاء..

ورأى أحد الركاب طفلها الذى لم يتجاوز منتصف الشهر العاشر من عمره، فأعجب به.. وسرعان ما اشتراه من «هالى» بخمسة وأربعين دولارًا.. وعندما رست السفينة فى ميناء (لويزفيل) فى جوف الليل، سرق النخاس الطفل الرضيع من أحضان أمه النائمة، فحمله الرجل الذى اشتراه وتسلل إلى البر..

وإذا استيقظت الأم فلم تجد وليدها، تولاها ذهول من شدة الكارثة.. وكان توم يرقب ما يجرى وهو مستغرق فى قراءة الإنجيل، ومناجاة ربه، وقلبه يتمزق.. وفى أعماق الليل البهيم، سمع نشيجًا خافتًا مكتومًا.. ثم صوت ارتطام جسم بسطح النهر.. واضطرب الماء ثم أخلد إلى السكون.. وأدرك توم ما جرى وهو مكتئب حزين..

لقد ذهبت المرأة تبحث عن الرحمة فى قلب النهر بعد إذ بحثت عنها فى قلب الإنسان فلم تجدها..

ولم يدهش النخاس أو يصدم حين اكتشف الأمر، فقد اعتاد أن يرى الموت يختطف بضاعته.. كل ما فعله أنه تحول يسجل الخسارة فى دفتر حساباته !.

* * *

نحن الآن إزاء منظر بهيج.. كانت «اليزا» تجلس فى مطبخ أنيق، نظيف دافىء، و«هارى» يلعب عند قدميها.. وإلى جوارها سيدة عجوز، يبدو البشر والطيبة على وجهها.

كانت تلك الدار إحدى الدور فى قرية «الكويكرز»، حيث سعدت اليزا بالعيش فترة بعد فرارها.. وحظيت «اليزا» و«هارى» فى تلك الدار برعاية ومحبة لم يحلما بهما يومًا من الأيام.. وكأنما شاء القدر أن يتم صنيعه فإذا «جورج» يصل إلى المستعمرة ذات مساء مع قافلة من العبيد الهاربين الذين كانوا يعرفون أن العون فى انتظارهم فى المستعمرة دائمًا..

وكان الصباح التالى من أبهج ما شهدت ضيعة «الكويكرز» فى ولاية انديانا.. كان الجميع منصرفين إلى خدمة مجتمعهم فى تعاون مثالى، حتى إذا أعدت مائدة الإفطار، التفوا حولها مترقبين.. وما أن ظهر جورج واليزا وهارى حتى استقبلوهم بترحاب حار، جعلهم يشعرون بأنهم يعيشون فى حلم.. ولأول مرة جلس جورج إلى مائدة واحدة مع قوم من البيض، لا يشمئزون من وجوده، بل يغمرونه بفيض من الوداد.. وأحس أن هذا هو الوطن الحق الذى ينشده.. ونفذ الإيمان بالله إلى فؤاده وهو فى غمرة هذا الجو الذى تشيع فيه التقوى والمحبة..

وسمع ابن شيخ المستعمرة يحاور أباه مسفهًا القانون الذى يحرم مساعدة العبيد الهاربين، فإذا الأب يقول فى تسامح الصالحين:

– ما ينبغى أن تتقول السوء عن حاكميك.. إنما ينعم الله علينا بالخيرات الدنيوية لكى نعدل ونرحم، فإذا كان حكامنا يطلبون ثمنًا لذلك فعلينا أن ندفعه.. ولا بأس على من أن أدفع الغرامة أو أسجن كما يقضى القانون..

قال الفتى: «لشد ما أكره أرباب العبيد»..

– كم أعجب لك يا بنى.. إن أمك لم تعن بتعليمك.. إننى أبذل من الخير لرب الرقيق مثلما أبذل للرقيق، لو أن الله ساقه إلى بابى ينشد عطفى وودى..

وهنا قال جورج فى قلق: «أرجو أن لا تكون معرضًا لمتاعب بسببى»..

– لا تخش يا جورج، فإنما خلقنا فى الدنيا لهذا.. وما لم نعرف الشقاء من أجل الخير، فلن نستحق أن نكون بشرًا.. إنما نبذل ما نبذل لله والإنسان.. ولسوف نقلك وبقية الجماعة فى العاشرة من هذا المساء إلى المحط التالى، فإن متعقبيك جادون فى مطاردتك، فلا ينبغى إضاعة الوقت!..

٣

وكانت شمس الغروب الباهتة تترنح فى نهاية ذات يوم على سفينة انسابت فى تؤدة متثاقلة على صفحة نهر المسيسبى، إذا كانت محملة بكميات هائلة من بالات القطن.. وجدير بنا أن نلقى نظرة على القوم الذين كانوا على ظهرها، لأن لنا بينهم صديقًا متواضعًا قديمًا، انكمش بين بالات القطن على السطح العلوى، يقرأ التوراة حينًا.. ويسرح بصره إلى القرى التى كانت تتناثر على الساحل البعيد، حينًا آخر.. إنه «توم»، الذى استطاع بصلاحه وبساطته وصراحته أن يلين قلب النخاس الجاحد «هالى» فاطمأن إليه، وتركه يروح ويجىء على سطح السفينة كيف شاء..

وكانت تتراءى له أكواخ العبيد فى القرى التى تمر بها السفينة، فيرتد به الخاطر إلى ضيعة «شيلبى»، ثم إلى الكوخ الأنيق، النظيف، الدافىء، حيث كانت زوجته كلو وأولادهما الثلاثة، فيذكو الحنين فى قلبه الكبير، ثم تستحيل أشواقه إلى قطرات من دموع تهطل على صفحات الإنجيل..

ولم يكن يسرى عنه سوى مرأى بنت صغيرة فى حوالى السادسة من عمرها، كانت مع أبيها - وهو سيد غنى عريق الأصل يدعى سانت كلير من (نيو أورليانز) - وكانت لا تكف عن اللعب والضحك والتنقل بين أركان المركب.. كانت آية فى الجمال، والبراءة، والسذاجة، فهفا إليها قلبه بكل ما فى عنصره من فطرة طيبة، ساذجة، تجعل الزنوج دوامًا يشغفون

بالأطفال.. وكانت فى جعبة توم ألاعيب كثيرة تستهوى الأطفال، فسرعان ما مالت الصبية إليه، وأنبأته بأنها تدعى «إيفانجلين سانت كلير» وإن كان الجميع ينادونها «إيفا».. وعلمت أنه يدعى «توم»، وقد كان الأطفال ينادونه «العم توم»، فحلا لها أن تناديه بهذا اللقب هى الأخرى..

وتوقفت السفينة فى مرساة صغيرة لتحمل خشبًا.. وكانت «إيفا» تقف مع أبيها عند سياج السطح العلوى.. وفجأة تحركت السفينة، فإذا الصغيرة تفقد التوازن وتهوى فى الماء.. وطفت مرة، ثم غاصت! وهم أبوها أن يتبعها فأمسكت به يد ملاح قوى.. وتصادف أن كان توم فى الطابق الأسفل، ورأى ما حدث، فإذا به يقفز خلف الفتاة ويغوص حيث غاصت، ثم.. يعود بها..

وكان هذا الحادث سببًا فى أن شهد اليوم التالى اجتماعًا بين السيد «سانت كلير» و «هالى» من أجل توم.. وما أن علم النخاس أن الصغيرة تتشبث بشراء العبد، حتى مضى يغلو فى تقدير ثمنه.. وكاد السيد أن يتحول عن الصفقة، لولا أن «إيفا» قالت له: «خذه يا أبى.. إن لديك الكثير من المال.. وأنا أريده!».

فسألها مداعبًا: «ولماذا يا صغيرتى؟.. أهو ألعوبة؟»

وفى سذاجة الطفولة أجابت: «بل لأننى أريد أن أسعده» وهكذا ابتاع «سانت كلير» العم توم.

* * *

كان «أوجستين سانت كلير» ابن مزارع ثرى من لويزيانا، ينحدر

أصله من كندا.. وقد أوتى منذ طفولته شعورًا مرهفًا، وشخصية حساسة، ورقة لم تلبث الأيام أن استبدلت بها خشونة الرجولة.. وما أن انتهى من دراسته، حتى وقع فى هوى جارف.. لكن حسناءه غدرت به وآثرت عليه رجلا آخر، فدفعته كرامته المهدرة إلى الانتقام لحبه المنبوذ.. فلم ينقض أسبوعان حتى تزوج من حسناء أخرى فاتنة، خلابة الجمال..

ولقد عهدنا العشاق الذين تتحطم قلوبهم يموتون فى الروايات.. أما فى الحقيقة، فإن الذى يموت هو تألق حياتهم وبهجتها.. وفيما عدا ذلك يظلون أحياء، يفعلون ما يفعله الأحياء.. ولو أن «مارى سانت كلير» كانت امرأة قديرة، لاستطاعت أن تبعث بهجة الحياة فى نفس أوجستين.. ولكنها كانت على النقيض، مدللة، غير مرهفة العاطفة، ولا متيقظة الحساسية.. وزاد الأمر سوءًا أن صحتها اعتلت بعد مولد طفلتها.. وعلى العكس منها، استيقظت العواطف الخامدة فى قلب أوجستين لمولد «إيفا»، فراح يحبوها بفيض من الحب والحنان أوغر صدر زوجته، فلم تزدد نحوه إلا فتورًا.. وتجمع الضعف الجسمى والذهنى فلم يلبثا أن أحالا «مارى»، الزوجة الفاتنة الخلابة، إلى امرأة دائمة المرض.. بل إلى حطام يشقى بالحياة!

ورأى سانت كلير ابنته تنشأ ضعيفة رقيقة، فخشى أن تضيع صحتها على مذبح إهمال أمها.. لذلك صحبها فى رحلة إلى «فرمونت»، حتى إذا آن له أن يعود بها أغرى ابنة عم له، عانسًا فى الأربعين، على أن تصحبهما كى تعنى بداره وطفلته.. وكانت «مس أوفيليا» - ابنة العم - لم تغادر فى حياتها مزرعة أبيها، فطاب لها هذا التحول.. سيما وقد كانت نشطة، حادة، حاسمة فى كل شىء.. تعيش على حب النظام، والترتيب، والدقة.. وكانت

أكبر الخطايا فى نظرها هى «التقاعس» و«التوانى و«الجمود».

وبلغت السفينة «نيو أورليانز» أخيرًا، فهبط «سانت كلير» و«إيفا» والعمة «أوفيليا».. وتوم!.. وسرعان ما أقلتهم عربة السيد - التى كانت تنتظرهم فى الميناء - إلى قصر عريق، واسع الأرجاء، بنى على الطراز المراكشى القديم.. وكان فى استقبال السيد عند هبوطه من العربة فى الساحة الداخلية للقصر رنجى شاب فى ثياب فاخرة، بدا من تصرفاته أنه صاحب الأمر والنهى فى عبيد السيد وخدمه!..

وكانت إيفا فى تلك الأثناء قد تسللت وأسرعت إلى قاعة صغيرة تطل على الشرفة، فنهضت لاستقبالها امرأة طويلة عجفاء.. وارتمت الفتاة عليها تقبلها وهى تردد: «أماه!».. فقبلتها المرأة وقالت: «كفى يا صغيرتى.. لا تصدعى رأسى!..»..

هكذا كانت «مارى» نشازًا فى اللحن السعيد الذى كان يغمر دار «سانت كلير».. كان الرجل مرحًا بطبعه، كريمًا، لطيفًا مع من كانوا يملأون داره من عبيد.. أما زوجته فكانت أنانية، جعلتها حالتها النفسية التعسة عبدة لأمراض وهمية أوغرت صدرها على العالم، وعلى خدمها فى المقدمة!.. سألتها ابنتها يومًا: «لم تستبقون العبيد يا أماه؟»، فأجابتها: «لست أدرى.. إنهم ينغصون حياتى».. وعندئذ انبرى لها «سانت كلير» يذكرها بتفانيهم فى خدمتها، وفى مقدمتهم تلك الجارية التى كانت مفضلة لدى «إيفا»، والتى كان الجميع يسمونها «ماما».. فقالت:

- إنها نافعة حقا.. ولكنها ذات أنانية بشعة.. أليس من الأنانية أن تنام الليل كله وأنا فى حاجة إلى رعاية فى كل ساعة منه؟..

وكانت «ماما» وصيفة لماری منذ حداثتها، فلما تزوجت هذه انتزعتها من زوجها وطفليها واصطحبتها إلى «نيو أورليانز».. ومع ذلك فقد كانت فی نظرها.. أنانية!

وكثيرًا ما كان موضوع الرق مثار نقاش كلما اجتمع سانت كلير وزوجته وأوفيليا.. وجلست «ماری» يومًا تشكو إلى ابنة عم زوجها كيف أن «إيفا» تعامل العبيد كأنهم سواء لديها، وتتهمها بأنها بذلك «تفسدهم».. واستطردت قائلة: «ليس أجدى فی معاملة الخدم من أن نشعرهم بأنهم أقل منا.. إننی أترفق بهم عادة، ولكن لابد لنا من أن نلزمهم حدودهم!».

وكانت «أوفيليا» تنصت واجمة، مستنكرة.. حتى إذا مضت «ماری» تذكر كيف يجب أن يجلد الزنوج بالسياط إذا أخطأوا، قالت: «ألا تعتقدين أن الله خلقهم مثلنا من لحم ودم؟.. أعتقد أن عليكم يا أرباب العبيد مسئولية خطيرة، فخليق بكم أن تعلموا عبيدكم، وأن تعاملوهم كمخلوقات ستقفون معهم جنبًا إلى جنب أمام الله..».

وكان «سانت كلير» من ناحيته يستنكر الاسترقاق، ويصفه بأنه يقضى على القيم الأخلاقية لدى أبناء السادة البيض وأبناء العبيد على السواء، فإن قسوة البيض على الزنوج إنما تزيد قلوب السادة جحودًا، وقلوب العبيد كراهية وبغضًا.. بل إنه كان يصف الجلد والسباب بأنهما كالمخدر للسيد وللعبد، يضطر المرء إلى مضاعفة الجرعة كلما ازداد له إدمانًا!..

وكان توم قد اطمأن إلى حياته الجديدة.. كانت «إيفا» الصغيرة تملأ حياته بهجة، وتزداد به تعلقًا، حتى لقد مضت تساعده على إتقان القراءة

والكتابة.. وكان «سانت كلير» يزداد كل يوم إعجابًا بتقواه وصلاحه، حتى لقد أخذ - تحت تأثره به - يميل هو الآخر إلى العناية بالدين والتعبد بعد أن كان منصرفًا عنها!..

٤

ولنعد الآن إلى ما كان من أمر «جورج هاريس» و«اليزا» فى ضيعة «الكويكرز».. فعند الأصيل، جلس الزوجان يتزودان بفيض من العواطف قبل أن يستأنف جورج رحيله.. ومضى يحدثها عن المستقبل الذى يرسمه لحياتهما وابنهما حين يستقر بهما المقام فى كندا..

وفى تلك الأثناء، أقبل ابن رب الدار ومعه الدليل الذى كان يساعد العبيد على الوصول إلى الحدود، ويدعى «فنياس».. وكان القلق يستبد بهما، فلقد اكتشف «فنياس» مؤامرة من بعض الطامعين فى المكافأة التى رصدها مولى «جورج» لمن يأتيه به، وكانوا قد أوعزوا إلى ستة من الأشقياء الأشداء بالتربص له فى الطريق المؤدى إلى الحدود..

وقفز جورج مهتاجًا، متحفزًا، ففحص غدارتين كان يحملهما، ثم التفت إلى مضيفه قائلاً:

– لا أريد أن أستدرج أحدًا منكم إلى المتاعب.. كل ما أرجوه أن تعيرونى عربة، وأن تصفوا لى الطريق إلى المحط التالى، ولسوف أجاهد فى سبيل حريتى..

فقال فنياس: «لابد لك يا صديقى من حوذى خبير بالطريق، وأنا رجلك.. فتول أنت الجهاد، وسأتولى أنا قيادة العربة»..

وإذ عجز جورج عن أن يثنيه، قال: «إننى لن أبدأ أحدًا بالاعتداء.. كل ما أرجوه أن أغادر هذه البلاد بسلام. لقد رأيت أختى تساق لتباع فى سوق النخاسة، ولن أرضى لزوجتى وابنى أن يباعا.. سأقاتل حتى آخر نفس قبل أن أرى زوجتى وابنى يؤخذان.. فهل يلومنى أحد على هذا؟».

وبعد العشاء، صعد الهاربون إلى عربة يجرها فحلان من البقر، فانطلقت على الطريق المكسوة بالجليد.. وكانوا خمسة: جورج واليزا والطفل، وجيم - الذى كان يقوم بدور تابع جورج حين استخفى فى هيئة السادة - ومعهم الامه!...

ولحق بهم المطاردون فى بقعة جبلية جرداء.. واستطاع «فنياس» - الخبير بكل شبر فى المنطقة - أن يأوى بالعربة إلى حمى حافة صخرية، وأن يقود المرأتين والطفل إلى فجوة متوارية بين الصخور.. بينما تسلق جورج وجيم الصخور المشرفة على منخدر أقبل منه المطاردون.. وعلى ضوء الفجر الزاحف، ظهر النخاسان «لوكر» و«ماركس» واثنان من رجال البوليس وبعض الأشقياء.. وتربث جورج وجيم حتى بلغ الزاحفون ممرًا ضيقًا، ثم استوى أولهما واقفًا فوق الصخور وصاح: «أنا جورج هاريس.. أنا الآن حر، أقف على أرض الله الحرة، وأقرر أن زوجتى وابنى ملك لى.. ومعنا أسلحة ندافع بها عن أنفسنا، وقد عقدنا العزم على الدفاع، ولن يفلت من يجسر منكم على الصعود إلينا.. إننا لا ندين لقانونكم، ولا لوطنكم، بل نقف أحرارًا تحت سماء الله، مثلنا مثلكم تمامًا!».

ولم يعبأ «لوكر» بإنذار الشاب المستميت، فأقبل يتسلق إلى حيث وقف.. وتريث جورج حتى صار النخاس على مرمى منه، ثم أطلق رصاصة

نفذت فى جانبه، فهوى لتتلقفه أغصان شجرة علقت بها ثيابه، فتدلى جسده فى الهواء.. وانبعث أنينه عاليًا، فأسرع رفاقه يخلصونه، ثم حاولوا إسعافه.. وجورج يطل عليهم من عل.. وشد ما كان عجبه إذ رآهم يخلفونه وراءهم وينطلقون عائدين من حيث أتوا!

* * *

كان وجود توم وأوفيليا فى دار سانت كلير بداية حياة جديدة فى الدار، إذ سرعان ما فطن ربها إلى أمانة توم وحرصه على أمواله، فسلمه معظم أموره. وأخذت تقوى العبد وصلاحه يفعلان فى نفس السيد ما لم تفعله كتب الدين وعظات رجال الكنيسة، فأقلع عن الشراب، وأخذ يصلح من أحواله..

أما أوفيليا فقد روعها ما كان فى الدار من فوضى أطمعت الخدم فى كل شىء، فأخذت بالحزم تصلح الأمور والأوضاع، وتفرض النظام والطاعة، فما لبثت إدارة البيت أن سارت فى دقة الساعة..

وكانت تتردد على الدار جارية تحضر الخبز من ضيعة مجاورة.. وكانت حياتها مأساة، فلقد قامت زمنًا على تمريض مولاتها فى الضيعة من حمى خبيثة فانتقلت إليها العدوى، وجف اللبن فى ثدييها.. وراح وليدها الرضيع يصرخ ليل نهار لفرط الجوع، ولكن مولاتها ضنت عليها بقليل من اللبن لغذائه، فمات وهو ماض فى صراخه!.. وأقبلت الجارية التعسة على الخمر تنشد السلوان.. وأخذت تسرق من ثمن ما تبيع من الخبز لتشترى خمرًا، فلم يكن من مولاها إلا أن ألقاها فى «بدروم» الدار وتركها حتى ماتت!..

وسمعت أوفيليا هذه المأساة البشعة، فهرعت إلى سانت كلير مهتاجة المشاعر تسأله أن يفعل شيئًا لرفع نقمة السادة البيض عن العبيد، فقال لها: «ما الذى تتوقعين؟.. هذه طبقة مهيضة الجناح، جاهلة، وضعت دون قيد أو رعاية فى قبضة قوم هم الغالبية الساحقة فى دنيانا.. قوم لا يرعون ضميرًا ولا ذمة».

وأخذ يبين لها كيف أن البيض - حتى رجال الدين منهم - لن يرتضوا أى تغيير فى الأوضاع، لأنهم كسالى، مفسودون، فهم حريصون على أن يشقى العبيد لينعموا هم.. ثم صاح فى يأس: «أؤكد لك أن لا سبيل إلى الإصلاح.. لقد مرت بى أوقات وددت فيها لو غرقت هذه البلاد ليمحو الماء ما فيها من مظالم وشقاء.. مرت بى أوقات كنت ألعن فيها بلادى، بل الجنس البشرى كله!».

وروى سانت كلير كيف فتح عينيه على الحياة، فإذا اللون سياج منيع يفرق بين البشر.. سياج دعمته التقاليد فلم يستطع أن يهدمه بمجهود فردى.. ووجد نفسه عاجزًا عن أن يقاوم أمرًا بدا كأن كل عناصر الطبيعة قد أجمعت على فرضه على الدنيا.. ولقد حاول أن يهيىء للعبيد فرصة العلم، ولكن الغباء الذى فرضته عليهم الذلة والخضوع، والكلل الذى كان يخلفه العمل الدائب، جعلا الدروس أشبه بالبذور التى تلقى فى أرض مجدبة!..

وانتهى من كلامه قائلا: «لست أدرى سوى أمر واحد، هو أن ثمة بعثًا يوشك أن يدب فى أوصال الطبقات المستعبدة - من رقيق وعمال - فى الدنيا بأسرها.. إننى أخال أن الزفرات والأنين والعظام الرميم قد بدأت

تحرك السماء.. لعل القيامة مقبلة، أو يهبط مسيح إلى الأرض!».

وعلى مائدة الشاى، أخذ يروى كيف أنه اشترى مرة من أخيه عبدًا كاد الأخ يبطش به، فعمل على أن يعتقه.. ولكن العبد مزق وثيقة العتق وأبى أن يفارقه، وتفانى فى خدمته حتى مات!..

وكانت إيفا تنصت واجمة.. ثم ارتمت على صدر أبيها باكية وقالت:

- أحس بهذه الأشياء تدمى قلبى يا أبت!..

٥

على أن شئون السادة لا يجب أن تنسينا صديقنا المتواضع توم.. كان العبد فى هذه الأثناء قانعًا، راضيًا، لا يعكر صفوه سوى الحنين إلى كوخه القديم وزوجته وأولاده.. وأشفقت عليه إيفا فأخذت تعلمه الكتابة ليبعث إليهم بأخباره ويتزود بأخبارهم..

وذات يوم فاجأ سانت كلير ابنة عمه بجارية صغيرة لم تتجاوز الثامنة، ابتاعها لها خصيصًا لتجرب فيها ما كانت تطالب به من تعليم العبيد وإصلاح نفوسهم.. وذهلت أوفيليا حين تبينت أن «توبسى» - الجارية الصبية - لا تعرف عمرها.. بل لا تعرف لها أمًّا..

وسألتها مشدوهة: «إذن، كيف ولدت؟.. ألم تسمعى عن الله؟.. ألا تعرفين من الذى خلقك؟».. فأجابتها: «لا أحد.. أعتقد أننا نموت هكذا.. لم يصنعنى أحد!».

وأخذت «توبسى» تستجيب لتوجيهات أوفيليا فى توجس وحذر، فما عهدت من قبل عطفًا، ولا تذوقت حنانًا.. ولقيت أوفيليا أشد العناء فى ردعها عن الكذب والخبث والخداع، التى تأصلت فى نفسها نتيجة ما لقيت فى أعوامها الأولى من إهمال وقسوة وظلم!

ولكن الشىء الذى أعيا أوفيليا حقا هو صرف الصبية عن السرقة.. فقد كانت تسطو دائمًا على كل ما تقع عليه يداها!.. وذات يوم سرقت

بعض أشياء، فاقترحت جارية أن تجلد بالسياط عقابًا لها.. وإذا «إيفا» تصرخ محتجة، ثم خلت إلى «توبسى»: طفلتان تمثلان عنصرين على طرفى نقيض: فالأولى شقراء، عريقة المنبت، طيبة التربية، سامية الخلق والروح.. والثانية سوداء، وليدة أجيال من الظلم والجهل والكدح والشر.. وكانت تدور فى خاطر إيفا أفكار لم تدر كيف تعبر عنها، فسألتها فى إشفاق: «ما حاجتك إلى السرقة؟.. إنى على استعداد لأن أهبك أى شىء من متاعى بدلا من أن تسرقيه!».

وحركت القلب الجاهل الجاحد لهجة الإشفاق البرىء! ولاحظت أوفيليا بعد ذلك أن ميل إيفا إلى الصبية الزنجية يشتد.. وأخذت بتوجيهات سانت كلير تلقن «توبسى» الدين، وتشجعها على قراءة التوراة، وتدربها على أعمال البيت والأشغال اليدوية..

* * *

ولنلق الآن نظرة أخرى على كوخ العم توم فى ضيعة شيلبى فى «كنتكى».. كان الكوخ موصدًا، وأولاد العبد المسن يرتعون فى البيت دون أن تحوطهم رعاية أمهم «كلو»!.. فقد سمعت الزنجية يومًا حوارًا بين مولاتها ومولاها فهمت منه أن ديون مستر شيلبى تحول بينه وبين شراء توم واستعادته، وقد هددته زوجته بأن تكسب الثمن بتدريس الموسيقى لبعض الأسر!.. وإذ ذاك اقترحت «كلو» أن تؤجر لمحل يصنع الحلوى فى «لويزفيل» كى يدخر أجرها لتحرير زوجها.. وتركت أولادها فى حمى السيد وزوجته!..

أما «توم»، فقد انقضى عليه عامان وهو قانع بحياته، لا يعذبه سوى

الحنين إلى الأعزاء الذين فارقهم.. ولكنه كان يتعزى بالصبية «إيفا» التى غدت بهجة حياته.. كانت تقضى الساعات الطوال فى صحبته، تقرأ له الإنجيل فى صوت عذب رخيم لم تسمع أذنيه مثله من قبل.. وما لبث وعى الصبية وقلبها أن تفتحا على معان كانت توقظ فى أعماقها حنينًا عجيبًا، ومشاعر قوية مبهمة كانت تستعذبها.. وحدثته يومًا عن العالم الآخر، وكان وهج الشمس الغاربة ينعكس على السحب:

- إننى أكاد أراه.. تأمل هذه السحب، لكأنها أبواب من لؤلؤ خلفها عالم من ذهب.. إنى لأرى السماء أيها العم توم، وتأتينيى فى المنام تلك الأرواح الطاهرة.. لسوف أذهب إلى هناك!..

- إلى أين يا مس إيفا؟..

فنهضت الفتاة وأشارت إلى السماء، وقد انعكس وهج الشفق على شعرها الذهبى وخديها المتضرجين فبدت محوطة بتألق سماوى.. وقالت:

- إننى ذاهبة إلى هناك يا توم.. إلى الأرواح المشرقة عما قريب..!

وخفق القلب المسن فجأة.. وقفز إلى خاطره ما كان يلاحظه منذ ستة أشهر من أن الصغيرة كانت فى هزال مطرد... وما سمعه من «مس أوفيليا» عن ذلك السعال الذى أنشب أظافره فى صدرها لا تقوى الأدوية على تخليصها منه.. وما رآه من احمرار خديها وكأن بهما وقدة محمومة.. وفعلا، كانت أوفيليا وابن عمها يرقبان الصبية فى قلق وانزعاج.. وأخذت أحوال «إيفا» تتطور تطورًا غريبًا كانت تزداد عطفًا على العبيد والجوارى، ولا تفتأ تصرح بأنها تود لو كانت تملك المال لتحررهم وتعلمهم!..

وكان هزالها فى اضطراد.. وكل العوارض تدل على أن الداء قد استشرى وأخذ يفتك بها سريعًا!.. وأدركت الصغيرة من كثرة تردد الطبيب عليها، ومن ازدياد حبا أهل الدار وإسرافهم فى العطف والحنان، أن نهايتها تقترب.. فلم تجزع من الموت، إذ كان قلبها مفعمًا بالحنين إلى ذلك العالم السماوى الذى قرأت عنه فى الإنجيل.. ولكنها كانت تشعر بإشفاق حزين على كل من ستخلفهم وراءها، كانت تحب أباها وأمها وتتألم لما سيصيبهما من حزن من أجلها.. وكانت تحب الخدم المخلصين الذين شغفوا بها.. وكان عقلها يسبق سنها فى النمو، فأخذت تتوق لأن تفعل شيئًا من أجلهم.. قالت يومًا وهى تقرأ الإنجيل للعم توم: «إننى أدرك لماذا أراد المسيح أن يموت من أجلنا.. لأننى أشعر بنفس الرغبة.. لست أدرى كيف أعبر لك، ولكننى مذ رأيت أولئك التعساء الذين كانوا مكبلين بالأغلال على ظهر السفينة، وعرفت أن منهم من فارقوا أزواجهم.. ورأيت الأطفال يبكون أمهاتهم، شعرت بأننى أقبل الموت مبتهجة، لو أن موتى محا شقاءهم!»

قالت لأبيها فى ذلك اليوم وهو يضمها فى حب وإشفاق: «لدى أشياء أريد أن أقولها لك قبل أن أزداد ضعفًا.. إن الوقت يقترب كى أفارقكم.. سأذهب ولن أعود أبدًا.. لا تحاول أن تخدعنى.. لست خائفة، ولا محزونة.. ولولاك ولولا من أحب لتمنيت لو كنت فى السماء من زمن، فإن هناك أشياء كثيرة تبعث الحزن فى نفسى.. إننى حزينة من أجل خدمنا، وأود لو يتحررون يا أبت.. تصور ماذا يحدث لهم لو أصابك سوء.. إن ما يضايقنى هو أنك تتمنى لو أننى أعيش سعيدة، فى حين أن أولئك المساكين يعيشون

حياتهم كلها فى أسى وألم.. أليس من وسيلة يا أبتاه لجعل العبيد جميعًا أحرارًا ؟».

فهتف الوالد الملتاع : «حسبك.. كفى عن الكلام عن الموت وأنا أحقق لك كل رغبة تبدينها !»

- إذن عدنى يا أبت أن ينال «توم» حريته بمجرد.. أن أموت !..

ووعدها الرجل.. وضمها إلى صدره فى أسى صامت مكبوت.

٦

كانت «أوفيليا» فى أشد حالات الانفعال، إذ ألفت «توبسى» قد سرقت إحدى قبعاتها فقطعتها لتعد ثيابًا لعرائسها!.. وفيما هى فى ثورتها عليها صحبت «إيفا» الفتاة فى صمت إلى حجرة صغيرة فى طرف الشرفة.. وتسلل سانت كلير على أطراف أصابع قدميه ليرى ما تفعلان، فإذا هما تجلسان على الأرض، و«توبسى» مستهترة، معرضة كعادتها، بينما كانت الدموع تملأ عينى «إيفا» وهى تحاول أن تقنعها بأنها تحبها وتبغى أن تساعدها على إصلاح حالها.. وسمعها تسائلها:

– ما الذى يجعلك غريبة الطبع إلى هذا الحد؟.. لم لا تحاولين أن تصلحى نفسك وتصبحى طيبة.. أليس فى وسعك أن تحبى أحدًا؟..

وأجابتها الصغيرة السوداء: «لست أدرى شيئًا عن الحب».

فأهابت بها «إيفا» من أعماقها أن تكون طيبة، ولكنها أجابتها: «كيف أكون طيبة؟.. ما كنت فى يوم من الأيام سوى زنجية.. جارية.. إنما أحاول أن أغدو طيبة لو أن جلدى سلخ يومًا فصرت بيضاء.. ليس ثمة من يحب الزنوج، فليس فى وسع الزنوج أن يحبوا...».

وشرعت فى الصفير غير مكترثة، فهتفت إيفا: «أواه، يا توبسى.. ولكننى أحبك!».. وفاضت عواطفها فوضعت يدها برفق على كتف

الجارية.. وإذ ذاك ذاب عناد «توبسى» وجحودها فهتفت بدورها: «أواه يا مس إيفا الحبيبة.. سأحاول.. ما كنت لأحفل بإصلاح نفسى من قبل!».

* * *

ولازمت «توبسى» مولاتها الصبية بعد ذلك، متفانية فى إرضائها.. واشتد المرض بالصغيرة فلم تعد تبرح فراشها.. وفى أصيل ذات يوم، طلبت إيفا جميع من فى البيت ليلتفوا حول سريرها.. وأخذت تنقل بصرها بينهم فى أسى ثم قالت:

- إنما استدعيتكم لأننى أحبكم، ولأننى أزمع فراقكم..

وانطلقت الأنات والشهقات من الجميع، بينما مضت الصغيرة تعظهم بأن يصلحوا أنفسهم، وأن يتخذوا لهم أهدافًا تجعل لحياتهم قيمة ومعنى ونفعًا.. ثم وزعت عليهم خصلات من شعرها - الذى كانت قد قصته قبل أن تدعوهم - لتكون ذكرى لها لديهم!..

وبقى توم إلى جوار السرير بعد انصراف الجميع، فهتف فى أسى: «ألا تعرفين أننى لا أستطيع الحياة بدونك؟» وتهالك فى بكاء مؤلم حتى أبعدته «أوفيليا» عن الحجرة..

وأخذ بصيص الحياة يخبو رويدًا فى أوصال «إيفا» بعد ذلك اليوم.. وكان توم وأبوها لا يكادان يفارقانها..

وفى ليلة مدلهمة.. ماتت «إيفا»!.. وأمسك سانت كلير بيد توم فى أسى جارف وهما يبكيان.. وأصرت «توبسى» على أن تدخل الغرفة التى سجى فيها جسد الصبية.. وفى هدوء وسكينة سعت إلى الفراش وفى يدها شىء

أخفته تحت ملابسها: نصف زهرة ممزقة من زهور الشاى جاءت تقدمها.. ولكنها لم تلبث أن فطنت إلى الحقيقة فصرخت مرتاعة وارتمت على الأرض باكية مولولة: «أواه يا مس إيفا.. ليتنى أموت أنا الأخرى».

وتتمالك أوفيليا نفسها - وكانت منخرطة فى البكاء - فتحمل توبسى إلى خارج الغرفة، والصغيرة الزنجية تبكى قائلة: «لقد قالت إنها كانت تحبنى.. لم يعد هناك من يحبنى الآن!».

* * *

وساءت حال سانت كلير بعد وفاة ابنته.. ولم يعد يرتاح إلا إلى صحبة توم، ينصت فى شغف إلى نفحات الإيمان التى كانت قوة روحية تسوقها على لسانه..

وقبل أن يفى سانت كلير بما وعد به ابنته من عتق توم، اغتيل فى نزاع طارئ نشب فى مقهى!.. وصفيت ممتلكاته.. وبينما أشفق القدر على «توبسى» فآلت ملكيتها إلى «أوفيليا» تنكر لتوم فإذا زوجة سانت كلير الجاحدة، المتعجرفة، تسوقه وزملاءه إلى سوق النخاسة، كى تجنى من بيعهم مزيدًا من المال.. وكان الحنين إلى الحرية قد نما فى نفس العبد التعس وتشعب، بعد أن غذته «إيفا» وأبوها بآرائهما وعطفهما.. وزاد من قسوة الكارثة أنها وقعت فى الوقت الذى كان فيه السيد يعد عدته لعتق عبده نهائيا!..

وفى سوق النخاسة وقع توم فى حوزة «سيمون ليجرى»، وهو سيد كان يملك مزرعة كبيرة للقطن فى الشمال، فى «فيرمونت»... وما أن أقلعت

السفينة حاملة قافلة العبيد الذين اشتراهم «ليجرى»، حتى شرع السيد الجديد يكشف عن قسوته، وفظاظته، وغلظته!.. رأى كتاب الترانيم يومًا فى يد توم فصاح به: «إذا كان لابد لك من كنيسة ودين، فأنا كنيستك ودينك.. أفاهم أنت؟».

وكان صمت العبد أبلغ من كل قول!.. وكأنما غاظ هذا الصمت مولاه الفظ فدفع بحقيبة توم إلى الملاحين يستعرضون ما كان فيها فى سخرية، ثم يوزعونه فيما بينهم.. بينما تحول «ليجرى» يستعرض بقية عبيده الجدد ويعرض عليهم ألوانًا من خشونته وبطشه!..

واقتربت السفينة أخيرًا من شاطئ كساه الطمى الأحمر، فارتمت نظرات العبيد فى أسى ووجوم على البلدة التى تقرر أن يهبطوا إليها كى يواصلوا منها رحلتهم برا إلى ضيعة «ليجرى»..

* * *

سار العبيد صفا - تربط بينهم السلاسل الحديدية - خلف عربة السيد، فى طريق وعرة، مضنية، والريح تهب فى ولولة حزينة.. وكأنما أبت قسوة قلب «ليجرى» أن تقنع بما هم فيه، فأمرهم بأن يغنوا!.. وشرع توم ينشد إحدى ترانيم الكنيسة، ولكن «ليجرى» صاح صاخبًا يأمره بأن يصمت، وأصر على أن يغنى التعساء أغنية مرحة!. وانبعثت الأصوات فى طرب ظاهرى من صدور ضمت قلوبًا أثقلها اليأس والقنوط!..

وبلغ الركب الكئيب ضيعة ليجرى أخيرًا.. الضيعة التى كان يحكمها السيد بالإرهاب والكراهية.. كان يبث فى صدور عبيده كراهية بعضهم

بعضًا، ثم يوغر صدورهم حتى يحيلهم وحوشًا مجردة من الإنسانية.. ضد بعضهم بعضًا، لا ضده!

وكان «توم» كفيلا بأن يقنع بما قدر له من مصير، فإن تقواه كانت تسكب فى أعماقه رضى وسكينة.. غير أن فظاظة السيد، والانحلال الخلقى الذى لمسه بين عبيد الضيعة، أثار اشمئزازه.. لاسيما وقد كان لدى ليجرى عبدان أثيران أطلق لهما العنان فكانا يغتصبان الجوارى دون تورع!.. فلم يجد توم عزاء لنفسه إلا فى إنجيله وتوراته، وفى محاولته فى كل فرصة أن يقدم الوعظ لمن يأنس إليه من زملائه العبيد..

واستقر توم فى مهانته الجديدة.. وكان «ليجرى» يراقبه عن كثب، فلما اطمأن إلى جده وكفاءته فكر فى أن يجعل منه مراقبًا على العبيد فى المزرعة.. ولكنه آثر أولا أن يقضى على ما كان يعمر قلبه من إيمان ورحمة وصراحة، إذ كان يراها ضروربًا من اللين والنقص!.. وكان يعتبر اعتزازه بتدينه لونًا من التمرد.. وقرر أن يقاوم فيه نزوعه إلى الحرية، وحنينه إلى أن يكون له ما لأى فرد من حقوق كتبها له الله..

وفى فجر ذات يوم، خرج العبيد لجنى القطن.. ولاحظ توم إلى جواره جارية لم يرها من قبل بين الكادحات.. كانت ذات يدين رخصتين وقوام رشيق، وقد بدت على ملامحها علامات الغضب المصحوب بالتجلد والكبرياء..

ولمح فى أثناء النهار إحدى الجوارى اللاتى ابتاعهن «ليجرى» معه تعانى آلامًا مبرحة دون أن تقوى على جنى شىء، فأقبل يساعدها، وإذا «سامبو» - أحد العبدين المفضلين لدى «ليجرى» - يقبل فيلهب وجهه

بالسوط، ويركل المرأة بقدمه.. واحتمل توم فى صبر، ثم عاود الاقتراب من المرأة، وألقى فى كيسها كل ما جنى من قطن.. وإذ ذاك رفعت المرأة الجديدة - ذات اليدين الرخصتين والملامح التى تسيطر عليها الكبرياء - أهدابها الطويلة وتطلعتْ إليه قائلة:

- لو كنت تعرف حقيقة هذا المكان لما فعلت ما فعلت.. إنه مكان لم يزره الله !..

وفى تلك الأثناء أقبل أحد المراقبين، فما أن لمحهما يتكلمان حتى رفع صوته.. ورمته المرأة بنظرة قاسية، وإذا يده تهوى إلى جانبه ويهتف: «يا للشيطان !.. مس كاسى !..».

وكان الظلام قد سيطر على الكون، حين اتجه العبيد إلى المبنى المخصص لهم، وهم لا يكادون يقوون على السير لفرط ما نالهم من إرهاق.. ووقف «سامبو» و«كيمبو» - المقربان للسيد - يشرحان له أحداث اليوم، ويشكوان من محاولات توم لمساعدة الجارية التى رآها عاجزة عن العمل.. فقال ليجرى:

- أصحيح هذا ؟.. إذن فسنتيح له بهجة جلدها بالسوط ليتدرب على معاملة البنات !..

ونادى توم وأمره أن يسوط الفتاة.. ولأول مرة يعصى توم سيدًا، إذ رفض.. وتناول ليجرى سوطًا وضربه على وجهه فى عنف.. وتحمل توم، حتى إذا كل الرجل، قال وهو يمسح الدم المنبثق:

- مرنى أن أعمل ليل نهار يا سيدى.. أما هذا العمل.. فلن أرتكبه قط !..

وسرت رعدة من الدهشة والإشفاق فى جميع العبيد وصاح ليجرى:

– ماذا أيها الحيوان الأسود؟.. أأنت تعلم مولاك الخير والشر.. والصواب والخطأ؟.. يا لك من كلب شقى!.. ألم يرد فى توراتك أن «أطيعوا سادتكم أيها الخدم»؟..أو لست سيدك؟..

وركله بحذائه الضخم فى عنف وهو يقول:

– ألست مولاك؟.. ألم أدفع ألفًا ومائتى دولار فى هذا الهيكل الباقى تحت جلدك الأسود القذر؟.. ألم تصبح ملك يدى جسدًا وروحًا؟..

وإذ سمع «توم» وحى الغرور والاستعلاء، اعتدل فى وقفته منتصبًا فجأة، ورفع وجهه إلى السماء والدمع يفيض من عينيه، فيختلط بالدم الذى سال من وجهه أثر السوط والركلات، وهتف:

– لا.. حاشا لله!.. إنك لا تملك روحى يا مولاى!.. وأشك أنك لم تشترها، وليس فى وسعك أن تفعل.. إنما اشتراها ودفع ثمنها الواحد القادر على أن يحتفظ بها.. ولن تستطيع أن تنتزعها منه مهما آذيتنى!..

وهاجت هائجة ليجرى.. كيف يشرك ذلك العبد فى سلطانه عليه أحدًا، ولو كان الواحد القادر، مالك الخلق أجمعين؟.. وفى سورة الطغيان، أمر «سامبو» و«كيمبو» بأن يجلدا «توم» بالسياط!.. وأقبل العبدان الخسيسان على الزنجى المسن الواهن، يجرانه فى عنف، ثم انطلقا يلهبان جسده بسياط سكبا فيها كل ما اختلط فى نفسيهما من خسة ووحشية، حتى أحالاه شرائح ممزقة أيما تمزق!.. لكن توم لم يتزحزح عن عقيدته.. لقد اشترى الطاغية الجسد الفانى، ولكنه لا يملك سلطانًا على الروح، فهى لبارئها وخالقها ومبدعها!..

ولم يزده إصراره إلا عذابًا.. وظلت السياط تنهال عليه، حتى أنقذته الجارية السمراء ذات الكبرياء «كاسى»، التى لم تكن سوى جارية من أب أبيض وأم سوداء، اتخذها ليجرى خليلة له ردحًا من الزمن.. ووهبها الحظ قوة سحرية تجعل «سامبو» و«كيمبو» ينحنيان أمام نظراتها!..

وعكفت «كاسى» على «توم» تعنى به وتعالج جراحه..

٧

ورحم «ليجرى» عبده، لا رهبة من الله، وإنما إرضاء لخليلته السابقة، فتغافل عنه أيامًا، حتى تماثل للشفاء..

وكان توم نائمًا قبيل فجر أحد الأيام فى الحظيرة، يحلم بأن يومه قد اقترب، وأنه على وشك اللقاء الذى كانت تهفو إليه روحه.. لقاء ربه!.. وفجأة أحس بركلة عنيفة بددت رؤى الحلم.. واستيقظ ليرى ليجرى أمامه!..

وقال الطاغية: «اركع على ركبتيك واستغفرنى أيها الكلب!..»

وانتصب توم واقفًا ورفع رأسه فى شمم وإباء قائلاً:

- أعرف أنك تستطيع أن تنكل بى.. ولكنك لن تقوى على أكثر من أن تقتل الجسد.. وما أحب الخلود الذى يتلو ذلك!.. إن لك عمل يدى لأنك ابتعتنى، أما روحى، فليس بوسعى أن أهبها لمخلوق فإنها وديعة أحتفظ بها لأردها إلى الله!..

- سأريك كيف تذللها لى..

- لن تستطيع، فإن الله يعيننى!..

ولكمه لكمة طرحت به أرضًا.. وهم أن يبطش به لولا أن أحس بيد ناعمة باردة تمسك بيده.. والتفت فإذا «كاسى» أمامه.. وكأنما كان لها فعل

السحر.. فنكص السيد على عقبيه وغادر الحظيرة !..

وقال توم: «ألم أقل له إن الله يعيننى ؟».

فقالت له: «هذا ما حدث فعلا، ولكن الطاغية لن يكف عن تعقبك يومًا بعد يوم، يمتص دمك قطرة أثر قطرة.. اننى أعرفه !».

* * *

لندع العم توم لحظة لنكر عائدين إلى حيث تركنا جورج هاريس وزوجته.. فإنهما لم يكادا يبلغان المحط التالى فى رحلتهما حتى بادرت إليزا إلى التخفى فى ثياب الرجال بعد أن قصت شعرها، وألبس «الكويكرز» ابنها «هارى» ثياب البنات.. بينما أجرى جورج بعض التعديلات فى مظهره.. وهكذا استقلوا السفينة فى طريقهم إلى كندا..

وكانت الرحلة لا تستغرق أربعًا وعشرين ساعة فى العادة - أى يومًا واحدًا - ولكن كان بالنسبة لجورج وإليزا يومًا حافلا.. كان الحد الفاصل بينهم وبين الحرية.. الحرية !.. هل من كلمة تحمل فى حروفها وجرسها من المعانى مثل هذه الكلمة ؟ !.. وهل من كلمة تجلها الأمم ويجلها الأفراد على السواء مثلها !.. وما حرية الشعب إن لم تكن هى حرية الفرد ؟.. إن الحرية لدى أبطال الجهاد الوطنى هى حق الأمة فى أن تغدو أمة.. وبالنسبة لجورج هاريس كانت الحرية هى حق الإنسان فى أن يكون إنسانًا، لا حيوانًا !..

ووقف جورج وإليزا على سطح السفينة وهى تقترب من شاطئ بلدة (أمهر ستبيرج) الكندية.. وتهدجت أنفاس الشاب، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يضغط اليد الصغيرة التى كانت فى راحته، بينما انبعث رنين جرس السفينة يعلن.. سلامة الوصول !..

وكانا قد أنفقا آخر درهم يملكان، حين هبطا إلى البر..

لم يكونا يملكان سوى الهواء الذى يستنشقانه، وتغريد العصافير الذى كان يشنف آذانهما، والزهور المنبثة فى الحقول يبعث مرآها بهجة فى نفسيهما.. ومع ذلك فقد كانا أغنى البشر.. بالحرية!..

قبل أن يسترد توم قواه كان «ليجرى» قد أرسله إلى الحقول يعمل، وراح يرهقه بالمهام، يشغله بها ليل نهار، حتى لم يعد يجد وقتًا يقرأ خلاله الإنجيل، اللهم إلا تلك الدقائق التى يستغرقها إنضاج طعامه على النار حين يأوى إلى الحظيرة فى المساء..

وفاجأه يومًا ليجرى وهو يقرأ الإنجيل على وهج الموقد، فقال له: «ألا تزال تتشبث بالدين؟.. لقد أردت بك خيرًا حين ابتعتك أيها العجوز، وكان بوسعك أن تكون أعز مركزًا من سامبو وكيمبو.. فدع إلهك وانضم إلى كنيستى..».

وإذ ألفى أن إيمان توم لا يزال راسخًا، تحول يزيده إرهاقًا، ويوسعه اضطهادًا!.. وكاد اليأس يتسرب إلى نفس العبد المسن، لولا أن روحه كانت لا تلبث أن تذكو كلما وهن جلده.. وفى نوبة من نوبات القنوط، خيل إليه أنه يرى المسيح ماثلا أمامه، محوطًا بهالات من نور سماوى.. وسمعه يحنو عليه فى عطف ويردد: «إن الذى يقاوم فينتصر يجلس إلى جوارى على عرشى.. كما قاومت أنا واحتملت»!..

وكان لهذه الرؤيا فى نفس توم الصالح الساذج وقع الحقيقة.. فاستيقظ فى فجر اليوم التالى وهو أقوى إيمانًا، وأعمر قلبًا، وقد بدا له أن كل ما فى

وسع «ليجرى» أن ينزله به من ضروب المهانة، والذلة، والعذاب، إنما هى كئوس لها نشوة!..

ولاحظ الجميع ما كان عليه توم من إشراق وابتهاج، وسمعه ليجرى فى ذلك المساء ينشد الترانيم بصوت كان يتصاعد من أعماقه.. فسار إليه، وانهال عليه ضربًا! ولكن ضربه لم يصل إلى غير البدن الخارجى.. أما الروح فظلت منتعشة، مستريحة راضية..

وفى بهيم الليل، استيقظ توم على «كاسى» تهزه، فلما استفاق بادرته هامسة: «أيها الأب توم.. ألا تحب أن تستعيد حريتك؟».

فأجابها: «لا.. ولو كانت تعدل ألف دنيا.. سأنالها حين يشاء الله.. إن الخير لا يتأتى قط عن الخطيئة والذنب.. فخليق بنا أن نتحمل ما يريده الله بنا من عذاب، مرتقبين لحظة الخلاص التى يحددها..».

* * *

ولكن «كاسى لم تكن فى مثل إيمانه وتقواه.. فما لبثت أن فرت.. وأغرت على مرافقتها «اميلين»، خليفتها فى أحضان «ليجرى»..

وطاردهما الطاغية وعبداه «سامبو» و«كيمبو»، حين افتضح الأمر.. فلما عجزوا عن اللحاق بهما، عاد ليجرى وقد تملكه غضب أهوج كأنه الإعصار الجامح، عصف بأطلال الإنسانية فى نفسه، فانطلقت وحشيته أشد ما تكون عتوا.. وبحث عن منفث لغيظه، فلم يجد غير توم، إذ خيل إليه أن له يدًا فى الأمر، فعهد إلى عبديه بأن يجلداه بالسياط!..

ولم يقاوم المسكين، بل رفع وجهه إلى السماء وهتف: «إليك أسلمت

روحى!».. وانهالت عليه السياط فى جبروت، فكان وقعها يستحيل فى أذنيه إلى صوت سماوى يردد: «لا تخف أولئك الذين يقتلون الجسد، فليس من سلطان لهما وراءه..».

وكان ليجرى يتناوله بين الحين والآخر فيوسعه ركلا.. ثم يعاود العبدان جلده غير مشفقين.. حتى بلغ منهما الإعياء كل مبلغ!..

وقال ليجرى: «لطالما تحديتنى أيها العبد الأسود، ولكننى عازم الآن على أن أكسر عنادك أو أقتلك.. أنتزع قطرات دمك تباعًا!»..

فتطلع إليه توم وقال: «إننى لأهبك دمى عن طيب خاطر لو كان فيه إنقاذك.. ولكنى أهيب بك أن لا تجلب على نفسك وزر موتى.. إن الأذى الذى سيصيبك أضعاف ما يصيبنى!».

وتقطعت أنفاس توم، ولكنه لم يئن أو يصرخ.. كانت روحه البريئة تشعر بأن الله معها، فتنسى فى نشوة الرضى قسوة الألم!.. وهم العبدان أن يكفا عن جلده، ولكن ليجرى زمجر مهددًا، ففتح توم عينيه ونظر إليه قائلا: «أيها المخلوق المسكين التعس.. إنك لن تفعل بى أكثر مما فعلت.. ولكنى أغفر لك من كل قلبى!».

وبهت «سامبو» و«كيمبو» من قوة إيمان توم، فما أن تحول عنهما سيدهما، حتى ذاب جحودهما، وألقيا سوطيهما، ثم ركعا إلى جوار فريستهما يبكيان.. ولأول مرة آمنا بوجود سيد فوق سيدهما.. سيد أعز منه مكانة، وأحب منه إلى عباده، حتى ليلقى العبد من أجله ما يلقى وهو صابر، شاكر، راض!..

٨

وظل توم يومين بلا حراك، يحتضر.. وكان كلما أفاق من غشيته دعا الله بأنفاس متقطعة أن يغفر للطاغية «ليجرى».

وفى اليوم الثانى، وفد على الضيعة شاب بادى الأناقة والعراقة، فما أن بلغها حتى قفز من عربته فى عجلة.. ولو أننا أنعمنا النظر فى القادم، لعرفنا فيه مستر جورج شيلبى، الصبى السيد الذى كان متعلقًا بالعم توم.. لكنه قد نما وأصبح رجلا، واستطاع بعد بحث وعناء أن يهتدى إلى مقر توم فجاء ليسترده.. وإذ علم «ليجرى» ببغيته، انطلق ينعت العبد المسن بأفحش النعوت، ولكن الشاب قطع عليه كلامه متسائلا فى جفاء عن مكانه، وقد امتقع وجهه..

وألفى توم راقدًا فى الحظيرة يجود بآخر أنفاسه، وقد أحاط به العبيد يبكون.. حتى «كاسى» الهاربة، بلغتها الأنباء وهى جادة فى الفرار.. فإذا بها تستهين بالأخطار وتعود لتجثو إلى جواره باكية..

وركع جورج شيلبى إلى جوار توم يناديه بصوت باك.. وفتح المحتضر عينيه، وتمتم فى صوت خفيض: «السيد جورج!.. لك الحمد يا رب.. هذا غاية ما كنت أتمنى.. إنهم لم ينسونى!».

وهتف جورج: «لا تمت.. ستحطم قلبى.. يا صديقى المسكين!»..

– جئت متأخرًا.. لقد ابتاع الله نفسى، وسيضمنى إليه.. لا تدعونى «صديقك المسكين».. لقد كنت مسكينًا يومًا ما، ولكن هذا ذهب مع الزمن.. إننى الآن على أبواب المجد.. أواه يا سيد جورج، ها قد حانت الآخرة.. حانت ساعة الفوز!.. لا تقل لكلو المسكينة شيئًا مما حدث..

وأخذ جورج فى لوعة الأسى يسب «ليجرى»، وهم أن يبطش به!.. ولكن توم أمسك بيده قائلًا: «لا.. إنه مخلوق مسكين، تعس.. أواه لو تاب وندم.. لا تعاده ولكن استغفر له!»..

وكانت آخر كلمات لفظها توم مع نهاية أنفاسه: «من.. من ذا الذى يقوى على منعنا من محبة الله: أشدة، أم ضيق، أم اضطهاد؟!»..

ومات توم!.. وجلس جورج ذاهلا من فرط حزنه، ثم نهض فأمر العبيد المتجمعين، فى لهجة لم يقو أحد على رفضها، فحملت جثة توم إلى عربته.. وهناك نشر عباءته، فسجيت عليها الجثة. ثم تحول إلى ليجرى الذى كان يصفر فى غير اكتراث، فلما استدار إليه، وجه إليه لكمة طرحته أرضًا، ووقف متحفزًا.. ولكن الطاغية غالبًا ما ينطوى على نفس خسيسة يملأها الجبن.. فقد نهض «ليجرى» ونفض الغبار عن ثيابه، وسار نحو الدار والعبيد يرمقونه فى عجب وازدراء!..

* * *

وذاع بعد موت توم أن ثمة شبحًا يظهر كل ليلة فيسير من الحظيرة حتى بيت ليجرى ويمضى فى الطواف حوله، ثم يجوس خلال الحجرات.. واشتد بليجرى الذعر، فكان يحكم رتاج الأبواب، ولكن الجدران والأبواب لم تكن لتصد الشبح عن أن يدخل الدار.. وراح ليجرى يفرط

فى الشراب ليغرق ذعره.. ولم يعد يقوى على النوم، أو ينعم بالراحة.. حتى قضى نحبه وليس إلى جوار فراشه من يشفق عليه!..

ووصلت «كاسى» إلى كندا أخيرًا، حيث التقت بجورج هاريس واليزا.. وشد ما كانت الفرحة حين ظهر أن كاسى لم تكن سوى.. أم اليزا.. وانضم إلى الجمع السعيد عضو جديد: أخت جورج التى بيعت على مشهد منه. فقد وقعت بين يدى سيد رحيم، لم يلبث أن حملها إلى مزارعه فى جزر الهند الغربية، حيث أعتقها وتزوج منها، حتى إذا مات ورثت أملاكه..

أما «توبسى» الصغيرة المتمردة، فقد غمرت أنوار الهداية قلبها الذى كان مستعصيًا، فكرست حياتها لخدمة الزنوج فى أفريقيا..

بقى جورج شيلبى.. فقد هز مصير توم كيانه، فلم ينقض شهر على عودته إلى ضيعه شيلبى حتى جمع كل عبيده وأعلنهم بأنه أعتقهم.. وقدم لكل منهم وثيقة العتق، فإذا بهم يجمعون على أنهم لا يقوون على مبارحة المكان الذى أصبح وطنًا لهم..

وطمأنهم جورج إلى أنهم سيبقون فى الضيعة ولكن كأجراء أحرار، ثم استطرد قائلا:

– كان ذلك على قبر عزيزنا الطيب العم توم اننى أقسمت لله لا أمتلك رقيقًا ما دام فى وسعى أن أحرره.. لذلك، فإننى أرجو كلما نعمتم بحريتكم أن تذكروا أنكم مدينون بها لتلك الروح الطيبة، وأن تردوا الدين عطفًا وحبًا إلى زوجته وأولاده.. فكروا فى حريتكم كلما رأيتم «كوخ العم توم»، وليكن نصبًا تذكاريًا يحثكم دائمًا على أن تتبعوا خطوات صاحبه، وأن تكونوا أمناء مخلصين، متقين.. كما كان!

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٣٨٦٧
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 3685 - 3

١ / ٩١ / ٢٠٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.



دار المعارف